المغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ الأنفالِ

(المجلدُ السابعُ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأَنْفالِ

سُورةُ الأنفالِ

سُورة الأنفالِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بِسُورةِ الأنفالِ.[1]

فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: (قلتُ لابن عباس: سورةُ الأنفالِ، قال: نزلتْ في بدرٍ).[2]

(1) سُمِّيَت بذلك لِذكْرِ لَفظِ الأنفالِ في أوَّلِها، ولم يُذكَر في سورةٍ غَيرِها، ولأنَّها بَيَّنَت حُكمَ الأنفالِ، وهي الغنائِمُ.
يُنظَر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (222/1)، ((تفسير القاسمي)) (251/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (245/9).

(2) أخرجه البخاري (4645)، ومسلم (3031).

سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ(3) بَدْريَّةٌ، وحُكِي الإجماعُ على ذلك.(4)

مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ الأنفالِ:

بيانُ أسبابِ النصرِ، وبعضِ أحكامِ الجهادِ.

من أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ الأنفالِ:

1- بَيانُ أحكامِ الأنفالِ- وهي الغَنائِمُ- وقِسمَتِها ومصارِفِها، والأمرُ بِتَقوى اللهِ في ذلك وغَيرِه، والأمرُ بطاعةِ اللَّهِ ورَسولِه في أمرِ الغَنائِمِ وغَيرِها، وأمرُ المُسلمينَ بإصلاحِ ذاتِ بَينِهم، وأنَّ ذلك مِن مُقَوِّماتِ معنى الإيمانِ الكامِلِ.

---

(3) وقيل: سورةُ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ إلَّا سبْعَ آياتٍ، مِن قولِه: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى آخِرِ سَبعِ آياتٍ؛ فإنَّها نزلت بمكَّةَ.
وقيل: غيرَ آيةٍ، وهي قَولُه: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا.
وقيل: مَدنيَّةٌ غيرَ قَولِه تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ فإنَّها نزَلَت بالبيداءِ في غَزوةِ بَدرٍ قبل القِتالِ.
يُنظر: ((تفسير البغوي)) (323/3)، ((تفسير الزمخشري)) (193/2)، ((تفسير ابن عطية)) (496/2)، ((تفسير الرازي)) (447/15).
قال ابنُ عطية (٤/١٢٦): «هي مدنية كلها، كذا قال أكثر الناس.
وقال مقاتل: هي مدنية غير آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية كلها.
وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه».
وقال ابنُ تيمية (٣/٢٤٧): «نزلت عقيب بدر بالاتفاق».
كما نصَّ ابنُ كثير (٧/٥) على مدنيتها.
(4) ممَّن حكَى الإجماعَ على ذلك ابنُ الجوزيّ، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظَر: ((تفسير ابن الجوزي)) (186/2)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (222/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (144/2).

2- وصفُ المؤمنينَ الصادقينَ، وتبشيرُهم بالدرجاتِ الرفيعةِ والمنازلِ العاليةِ.

3- ذِكرُ الخُروجِ إلى غزوةِ بَدرٍ، وكراهيةِ فريقٍ مِن المؤمنينَ لذلك، وما لَقِيه المؤمنون في هذه الغزوةِ مِن نَصرٍ وتأييدٍ مِن اللهِ، ولُطفِه بهم، وامتنانِه عليهم، والأمرِ بالاستعدادِ لِحَربِ الأعداءِ، والأمرِ باجتماعِ الكَلِمةِ، والنَّهيِ عن التَّنازُعِ، والأمرِ بأن يكونَ قَصدُ النُّصرةِ للدِّينِ نُصْبَ أعيُنِهم، ووصْفِ السَّبَبِ الذي أخرَجَ المسلمينَ إلى بدرٍ، ومَواقِعِ الجيشَينِ، وصفاتِ ما جرى مِن القِتالِ.

4- توجيهُ عدةِ نداءاتٍ لِلمُؤمنينَ؛ وإرشادُهم في كلِّ واحدٍ منها إلى ما فيه خَيرُهم وفَلاحُهم.

5- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنعمةِ اللهِ عليه؛ إذ أنجاه مِن مَكرِ المُشركينَ به بمكَّةَ.

6- ذكرُ ما عليه المشركون مِن جهلٍ وعنادٍ.

7- بيان أنَّ مُقامَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ كان أمانًا لأهْلِها، فلمَّا فارَقَهم فقد حَقَّ عليهم عذابُ الدُّنيا؛ بما اقترَفوا مِن الصَّدِّ عن المسجِدِ الحَرامِ.

8- دعوةُ المشركينَ للانتهاءِ عَن مُناوأةِ الإسلامِ، وإيذانُهم بالقتالِ، والتَّحذيرُ مِن المُنافِقينَ.

9- تفصيلُ أمرِ الغنائِمِ، وبيانُ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ.

10- ذكرُ أحكامِ العَهدِ بين المُسلمين والكُفَّارِ، وما يترتَّبُ على نَقضِهم العهدَ، ومتى يَحسُنُ السَّلْمُ.

11- بيانُ أحكامِ الأسْرَى، وأحكامِ المُسلِمينَ الذين تخلَّفُوا في مكَّةَ بعد الهِجرةِ، ووَلايَتِهم، وما يترتَّبُ على تلك الوَلايةِ.

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (1–4)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)

غريب الكلمات:

الْأَنْفَالِ: أي: الغَنائِم، واحِدُها نَفَل؛ والنَّفْل الزِّيادَة، والأنفالُ مِمَّا زَاد الله هذه الأُمَّةَ في الحلالِ؛ لأنَّه كان مُحرَّمًا على مَن كان قبلَهم، وأصلُ (نفل): يدلُّ على إعطاءٍ.

ذَاتَ بَيْنِكُمْ: أَي: الحالَ التي بَينكم، أو الأحوالَ التي تجمَعُكم مِن القَرابةِ والوُصلةِ والمَودَّةِ، وأصلُ (بين): موضوعٌ للخَلالةِ بين الشَّيئينِ ووسْطَهما.

وَجِلَتْ: أي: خافَت وفَرِقَت، والوَجَلُ: استشعارُ الخَوفِ.

تفسير الآيات:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (1).

أسبابُ النُّزولِ:

1- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((قالَ رسولُ اللَّهِ - ﷺ - يومَ بدرٍ: مَن فعلَ كذا وكَذا، فلَهُ منَ النَّفَلِ كذا وكَذا. قالَ: فتقدَّمَ الفِتيانُ، ولزمَ المشيَخةُ الرَّاياتِ فلم يبرَحُوها، فلمَّا فتحَ اللَّهُ عليهم قالت المشيخةُ: كنَّا رِدءًا[5] لَكُم، لوِ انهزمتُمْ فِئتُمْ[6] إلينا، فلا تَذهَبونَ بالمَغنمِ ونبقى، فأبى الفِتيانُ، وقالوا: جعلَهُ رسولُ اللَّهِ - ﷺ - لَنا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ * قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إلى قولِهِ: كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يقولُ: فَكانَ ذلِكَ خيرًا لَهُم، فكَذلِكَ أيضًا فأطيعوني؛ فإنِّي أعلمُ بِعاقبةِ هذا منكُم)).[7]

---

(5) رِدْءًا: أي: عَونًا.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (213/2)، ((المفردات)) للراغب (ص: 350).

(6) فِئتُمْ: أي: رَجَعْتم.

وأصلُ الفَيءِ: الرُّجوعُ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (482/3)، ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (228/1).

(7) أخرجه أبو داود (2737)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11133)، وابن حبان في ((الصحيح)) (5093).

صححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (103)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (2737)، وصحح إسناده العيني في ((نخب الأفكار)) (279/12).

2- عَن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ قال: ((نزلَتْ فيَّ أربعُ آياتٍ: أَصَبْتُ سيفًا، فأتى به النبيَّ - ﷺ -، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنِيه فقال: ضَعْه. ثم قام، فقال له النبيُّ - ﷺ -: ضَعْه من حيثُ أخَذْتَه. ثم قام، فقال: نَفِّلْنِيه يا رسولَ الله، فقال: ضَعْه. فقام، فقال: يا رسولَ اللهِ، نَفِّلْنِيه، أَأُجعَلُ كمَن لا غناءَ له؟ فقال له النبيُّ - ﷺ -: ضَعْه مِن حيث أخَذْتَه. قال: فنَزَلت هذه الآيةُ: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ [الأنفال: 1])).(8)

---

(8) رواه مسلم (1748).

اختُلِفَ في السبب الذي من أجله أُنزلت الآية على ثلاثة أقوال: أولها: أنها نزلت في غنائم بدر؛ نفَّل أقوامًا على بلاءٍ، فأبلى أقوام، وتخلَّف آخرون مع رسول الله - ﷺ -، فاختلفوا فيها بعد انقضاء الحرب، فأنزل الله هذه الآية على رسوله، يُعْلِمُهم أن ما فعل فيها رسول الله - ﷺ - فماضٍ جائزٌ.

وثانيها: أنها أُنزلت لأن بعض أصحاب رسول الله - ﷺ - سأله من المغنم شيئًا قبل قِسْمَتِها، فلم يعطه إياه؛ إذ كان شِرْكًا بين الجيش، فجعل الله جميعَ ذلك لرسول الله - ﷺ -.

وثالثها: أنها نزلت؛ لأن أصحاب رسول الله - ﷺ - سألوا قسمة الغنيمة بينهم يوم بدر، فأعلمهم الله أنّ ذلك لله ولرسوله دونهم، ليس لهم فيه شيء.

وقالوا: معنى ﴿عن﴾ في هذا الموضع: مِن.

وإنما معنى الكلام: يسألونك مِن الأنفال.

وبيَّنَ ابن جرير (١١/ ٢١) أنّ الأقوال الثلاثة جائزة في الآية، فقال: «وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى أخبر في هذه الآية عن قوم سألوا رسول الله - ﷺ - الأنفالَ أن يُعْطِيهُمُوها، فأخبرهم الله أنها لله، وأنه جعلها لرسوله.

وإذا كان ذلك معناه، جاز أن يكون نزولها كان من أجل اختلاف أصحاب رسول الله - ﷺ - فيها، وجائز أن يكون كان من أجل مسألة من سأله السيف الذي ذكرنا عن سعد أنه سأله إياه، وجائز أن يكون من أجل مسألة مَن سأله قَسْم ذلك بين الجيش».

وقال ابنُ عطية (٤/ ١٢٩): «يجيء من مجموع هذه الآثار: أنّ نفوس أهل بدر تنافرت، ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة، لا سيما مَن أبلى، فأنزل الله - عز وجل - الآية، فرضي المسلمون وسلّموا، فأصلح الله ذات بينهم، ورَدَّ عليهم غنائمهم».ومال ابنُ تيمية (٣/ ٢٤٧) للقول الأول، فقال: «قد تنازع المسلمون يوم بدر في الأنفال، فقال الآخذون: هي لنا.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:(9)

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بآيةِ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ... الآية [الأنفال: 41].(10)

وقيل: هي مُحكَمةٌ.(11)

وقال الذاهبون خلف العدو: هي لنا.

وقال الحافظون لرسول الله – ﷺ –: هي لنا.

حتى أنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾».

(9) اختُلِفَ في حكم هذه الآية، أمنسوخَةٌ هي أم محكَمَةٌ؟، على قولين: أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿واعْلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ...﴾ الآية.

والآخر: أنها محكمة، وليست منسوخة.

ومعناها: قل الأنفال لله، وهي لا شك لله مع الدنيا بما فيها والآخِرَة، و«للرسول» يضعها في مواضعها التي أمره الله بوضعها فيه.

ورجَّحَ ابنُ جرير (١١/ ٢٣) القولَ الثاني –وهو قول ابن زيد– لعدم ورود دليل بالنسخ، فقال: «الصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله –جل ثناؤه– أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه – ﷺ –، يُنفِّل من شاء، فنفَّلَ القاتِلَ السَّلَبَ، وجعل للجيش في البَدْأة الربعَ، وفي الرجعة الثلثَ بعد الخمس.

ونفَّل قومًا بعد سُهْمانهم بعيرًا بعيرًا في بعض المغازي.

فجعل الله –تعالى ذكره– حكم الأنفال إلى نبيه – ﷺ –، ينفِّل على ما يرى مما فيه صلاحُ المسلمين، وعلى مَن بعده من الأئمة أن يستَنّوا بسُنته في ذلك.

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ؛ لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفت.

وغيرُ جائزٍ أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها».

(10) ممَّن ذهب إلى ذلك: أبو عُبيد القاسم بن سلَّام، والواحديُّ، والشنقيطي، ونسبه النَّحاس والقرطبيُّ إلى جمهورِ العُلَماء.

يُنظر: ((الأموال)) (ص: 383)، ((التفسير الوسيط)) (444/2) للواحدي، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (49/2-50، 57)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: 451)، ((تفسير القرطبي)) (2/8).

قال أصحابُ هذا القولِ: لأنَّ قولَه: قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ يقتضي أن تكونَ الغنائمُ كلُّها للرسولِ، فنسخَها الله بآياتِ الخُمسِ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (449/15).

وممن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلَفِ ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والضحَّاك والشعبيُّ والسُّديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (21/11، 22)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: 453)، ((تفسير ابن كثير)) (9/4).

(11) ذهب ابنُ جريرٍ إلى ذلك.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ.

أي: يسألُك أصحابُك- يا مُحَمَّدُ- عن الغنائِم - وخاصَّةً غنائِمَ غزوةِ بَدرٍ التي غَنِمُوها من كفَّارِ قُريشٍ - عن حُكمِها، ولِمَن هي، وكيف تُقسَم؟[12]

قُلِ الأَنفَالُ لِلهِ وَالرَّسُولِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (23/11).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ ابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (22/11)، ((تفسير ابن كثير)) (9/4).

ومعنى الآيةِ على هذا القولِ: قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وهي لا شكَّ للهِ- مع الدُّنيا بما فيها والآخرةِ- وللرسولِ يضعُها في مواضعِها التي أمرَه الله بوضعِها فيه، وقد بيَّن الله مصارفَها في قولِه: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ... الآية.

ينظر ((تفسير ابن جرير)) (23/11)، ((تفسير الثعالبي)) (326/4).

(12) قال ابنُ عطية (١٢٧/٤): «السؤال في كلام العرب يجيء لاقتضاء معنىً في نفس المسؤول، وقد يجيء لاقتضاء مالٍ أو نحوه.

والأكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال، فهو من الضرب الأول.

وقالت فرقة: إنما سألوه الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها.

واحتجوا في ذلك بقراءة سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن الحسين، وأبي جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وطلحة بن مُصَرِّف، وعكرمة، والضحاك، وعطاء (يسألونك الأنفال)، وقالوا في قراءة مَن قرأ: ﴿عن﴾ أنها بمعنى: مِن.

فهذا الضرب الثاني من السؤال».

عن علي بن صالح بن حَيّ -من طريق عبد العزيز- قال: بلغني في قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾، قال: السرايا.

أخرجه ابن جرير ٧/١١، وفي الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣٧٥/٢ بأنه من قوله.

علَّقَ ابنُ عطية (١٢٩/٤) على هذا القول قائلًا: «هذا القول بعيد عن الآية، غير ملتئم مع الأسباب المذكورة، بل يجيء خارجًا عن يوم بدر».

أي: قُلْ لهم– يا محمَّدُ– جوابًا عن سُؤالِهم: إنَّما أمْرُ الغنائِمِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، الذي يملِكُها، وإلى مُحمَّدٍ – ﷺ –، الذي يَقسِمُها، وهما يتصرَّفانِ في شَأنِها، ويَضَعانِها حيث شاءا، فارضَوْا بحكمِهما، وسلِّموا الأمرَ إليهما.(13)

---

(13) اختُلِفَ في معنى الأنفال المذكورة في الآية على أربعة أقوال: أولها: أنها الغنائم عامة.
وهذا قول ابن عباس من طريق عكرمة، وعكرمة، وقتادة، والضحاك.
وثانيها: أنها ما تجيء به السرايا التي تتقدم الجيش خاصة.
وهذا قول الحسن.
وثالثها: أنها ما نَدَّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال؛ من دابة، أو عبد، وما أشبه ذلك.
وهذا أحد قولي ابن عباس.
ورابعها: أنها الخمس من الفيء والغنائم التي جعلها الله تعالى لأهل الخمس.
وهذا قول مجاهد.
ورجَّحَ ابنُ عطية (٤/ ١٣٠) القول الأول استنادًا إلى أحوال النزول، فقال: «أولى هذه الأقوال وأوضحها القول الأول، الذي تظاهرت الروايات بأسبابه، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه».
ويفهم ذلك أيضًا من كلام ابن تيمية (٣/ ٢٤٧ – ٢٤٨).
وذَهَبَ ابنُ جرير (١١/ ١٠ بتصرف) استنادًا إلى اللغة إلى أنها زيادات يزيدها الإمامُ بعضَ الجيش لما قد يراه من الصلاح، فقال: «أولى هذه الأقوال بالصواب في معنى الأنفال، قولُ من قال: هي زيادات يزيدها الإمامُ بعضَ الجيش أو جميعهم، إما مِن سَهْمه على حقوقهم من القسمة، وإما مما وصل إليه بالنفل، أو ببعض أسبابه؛ ترغيبًا له، وتحريضًا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين.
وقد يدخل في ذلك ما قال ابن عباس من أنه الفرس والدرع ونحو ذلك، ويدخل فيه ما قاله عطاء من أن ذلك ما عاد من المشركين إلى المسلمين من عبد أو فرس؛ لأن ذلك أمره إلى الإمام، إذا لم يكن ما وصلوا إليه بغلبة وقهر، يفعل ما فيه صلاح أهل الإسلام، وقد يدخل فيه ما غلب عليه الجيش بقَهر.
وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب؛ لأن» النفل «في كلام العرب، إنما هو الزيادة على الشيء.
فالفصل –إذ كان الأمر على ما وصفنا– بين الغنيمة والنفل أنّ الغنيمة: هي ما أفاء الله على المسلمين من أموال المشركين بغلبة وقهر، نفَّل منه منفِّل أو لم ينفل.
والنفل: هو ما أعطيه الرجل على البلاء والغَناء عن الجيش على غير قسمة».

فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ.

أي: فامتَثِلوا ما أمَرَكم اللهُ تعالى به، واجتَنِبوا ما نهاكم عنه، وأصلِحُوا الحالَ الواقعةَ بينكم في شأنِ تنازُعِكم في الأنفالِ، فلا تتخاصَمُوا ولا تتشاجَرُوا، ولا تتشاحَنُوا ولا تتدابَرُوا.

وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ.

أي: وانتَهُوا- أيُّها الطَّالبونَ الأنفالَ- إلى أمرِ اللهِ تعالى، وأمْرِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاقبَلوا ما أُمِرْتم به في شأنِ الأنفالِ وفي غيرِها، وامتَثِلوه وسلِّموا لحُكمِهما، إن كنتم حقًّا تؤمنونَ برَسولِ اللهِ فيما آتاكم به من عندِ ربِّكم؛ فإنَّ الإيمانَ يُوجِبُ القَبولَ لِحُكمِهما، ويدعو إلى طاعَتِهما.

ثم وصَفَ اللهُ تعالى المؤمنينَ ذوي الإيمانِ الكامِلِ، فقال:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2).

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ.

أي: إنَّما المؤمنونَ حقًّا، الكامِلُون في إيمانِهم كمالًا كما ينبغِي؛ مَن إذا ذُكِرَ اللهُ وعَظَمتُه وقُدرتُه، وخُوِّفُوا به سبحانَه؛ فزِعَت قلوبُهم، وخافوا منه عزَّ وجلَّ، فخَضَعوا له بفِعلِ أوامِرِه، وتَرْكِ نَواهِيه.

كما قال تعالى: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [النازعات: 40–41].

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا.

أي: وإذا قُرِئَتْ عليهم آياتٌ مِن كِتابِ الله سبحانه، ازدادَ تصديقُهم ويقينُهم، وإذعانُهم وانقيادُهم.

كما قال عزَّ وجلَّ: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [التوبة: 124].

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

أي: وعلى مَن خَلَقَهم ويَملِكُهم، ويدبِّرُ شُؤونَهم، يعتَمِدون، وبه يَثِقونَ في جَلْبِ مصالِحِهم ودَفْعِ مَضارِّهم، لا يرجونَ غَيرَه، ولا يرهبونَ سواه، ولا يقصِدونَ مَن دُونَه، ولا يلوذونَ إلَّا بجنابه.

كما قال تعالى: وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [آل عمران: 122].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا [الملك: 29].

ثُمَّ نبَّه سبحانه على أعمالِهم، بعدَ ما ذكَر اعتقادَهم، فقال:

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3).

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.

أي: ومِن صفاتِهم أنَّهم يؤدُّونَ الصَّلاةَ- التي هي حقٌّ خالصٌ لله تعالى- بحُدودِها وشُروطِها، وأوقاتِها وأعمالِها: الظَّاهِرةِ والباطنةِ، فيأتونَ بها على الوَجهِ المَطلوبِ.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم اللهُ مِن الأموالِ، النَّفَقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ؛ نفعًا للعبادِ، وأداءً لحُقوقِهم.(14)

ثم حقَّق اللهُ تعالى لهم الإيمانَ، فقال:

أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4).

أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.

---

(14) قال ابنُ عطية (٤/١٣٦بتصرف): «قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.
وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة، وإلا فهو لفظ عام في الزكاة، ونوافل الخير، وصلاة المستحقين.
ولفظ ابن عباس في هذا المعنى محتمل».
وبنحوه قال ابنُ كثير (١٥/٧).

أي: أولئك الذينَ يَفعلونَ تلك الأفعالَ الجَليلةَ، ويتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ العظيمةَ هم وَحدَهم المؤمنون حقَّ الإيمانِ، إيمانًا لا يعتريه شكٌّ.

ثم ذكَرَ ثوابَ هؤلاءِ المُؤمنين الذي وصَفَهم، فقال:

لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ.

أي: لهم مراتِبُ ومنازلُ عالياتٌ، يرتَقونَها في الجنَّاتِ، بحسَبِ عُلوِّ أعمالِهم الصَّالحاتِ.

كما قال سبحانه: هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ [آل عمران: 163].

وقال تعالى: وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا [الإسراء: 21].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال: ((إنَّ أهل الجنَّةَ يَتَراءون أهلَ الغرفِ من فوقِهم، كما تَتَراءَونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ[15] في الأُفُقِ، من المشرقِ أو المغربِ، لِتَفاضُلِ ما بينهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ تلك منازلُ الأنبياءِ لا يَبْلُغُها غيرُهم، قال: بلى، والذي نفسي بيَدِهِ، رجالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ)).[16]

---

(15) الكوكب الدُّرِّي الغابر: أي: الكوكب العظيم، سُمِّيَ دُرِّيًا لِصفاءِ لَونِه، وخُلوصِ نُورِه، وشدَّةِ إضاءَتِه.
والغابِر: الباقي في الأُفُقِ بعد انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ.
يُنظر: ((شرح البخاري)) للقسطلاني (5/285–286)، ((الميسر في شرح مصابيح السنة)) للتوربشتي (4/1217).

(16) رواه البخاري (3256) واللفظ له، ومسلم (2831).

وَمَغْفِرَةٌ.

أي: ولهم سَترٌ لذُنُوبِهم، وتجاوزٌ عنها.

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

أي: ولهم في الجنَّةِ رزقٌ أعدَّه الله تعالى لهم فيها؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ وهَنيءِ العَيشِ، ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قلبِ بَشَرٍ.

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (5–8)

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ
بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ
وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7)
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)

غريب الكلمات:

يُجَادِلُونَكَ: أي: يُنازِعونَك، والجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المُنازعةِ والمُغالبةِ، وأصلُه يدلُّ على امتدادِ الخُصومةِ، ومُراجعةِ الكَلامِ.

وَتَوَدُّونَ: أي: وتتمَنَّونَ، وتُحِبُّون، والودُّ: محبةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ.

ذَاتِ الشَّوْكَةِ: أي: ذاتِ الحَدِّ والسِّلاحِ؛ مِن السَّيفِ والسِّنانِ والنِّصالِ، واشتقاقُها مِن الشَّوكِ: وهو النَّبتُ الذي له حِدَّةٌ، وأصلُ (شوك): يدلُّ على خُشونةٍ، وحِدَّةِ طَرَفٍ في الشَّيءِ.

يُحِقَّ الْحَقَّ: أي: يُثبِتهُ ويُعلِيه، وأصلُ (الحقّ) يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه.

وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ: أي: يجْتَثَّ أصْلَهم، ويستأصِلَهم عن آخِرِهم، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه.

تفسير الآيات:

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5).

أي: كما أنَّ اللهَ تعالى وكَّلَك– يا مُحمَّدُ– بأمْرِ قِسمةِ الغَنائِمِ يومَ بَدرٍ، وجعَلَه حقًّا ثابتًا لك– وكان بعضُ أصحابِك قد كَرِه واعتَرَض على كيفيَّةِ قِسمَتِك لها– فكذلك أخرجك مِن بَيتِك؛ لأخْذِ المالِ مِن عِيرِ كُفَّارِ قُريشٍ، فجاءها نفيرٌ، وكَرِهَ بعضُ أصحابِك مُلاقاتَه؛ فحالُهم في الأنفالِ كحالِهم في كراهةِ القِتالِ يومَ بَدرٍ، فامضِ لأمرِ اللهِ في الغنائِمِ، كما مَضَيتَ لأمْرِه في الخُروجِ وهم له كارِهونَ،[17] وكلاهما حَقٌّ وخيرٌ مِن عندِ اللهِ تبارك وتعالى.[18]

---

(17) وهذا المعنى هو في الجملةِ اختيارُ الزَّجَّاج، والواحدي، والشِّنقيطي.
يُنظر: المصادر السابقة.
وفي الآيةِ أقوالٌ أخرى كثيرة.
يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (5/559–563).
قال الشِّنقيطي: (فالذي كَرِهوه مِن قَسْمِ غَنائِمِ بدرٍ، هو الذي لهم فيه مصلحةُ الدُّنيا والآخرةِ، والذي كَرِهوه من خروجِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بهم، الذي آلَ إلى قتالِ جَيشِ قُريشٍ؛ كرهوه وهو أيضًا خيرٌ لهم في دينِهم ودنياهم، فاللهُ تبارك وتعالى كأنَّه أشار بالتَّشبيهِ على هذا القَولِ إلى أنَّه أعلَمُ بمَصالِحِهم مِن خَلقِه، وأنَّ خَلقَه يكرهونَ شيئًا، والمصلحةُ لهم فيما يختارُه لهم ربُّهم؛ كما قال جلَّ وعلا: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [البقرة: 216] هذا أقرَبُ الأقوالِ، وكثيرٌ مِن الأقوالِ ساقِطٌ سقوطًا بيِّنًا، وهذا أقرَبُها، واختاره غيرُ واحدٍ).
((العذب النمير)) (4/483).
(18) اختُلِف في تأويل الآية، ومعنى الكاف في قوله تعالى: ﴿كما أخرجك﴾ على خمسة أقوال: أولها: أنّ الكاف للتشبيه، والآية أمْرٌ من الله لرسوله – ﷺ – أن يمضي لأمره في الغنائم، على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العِير وهم كارهون.
وثانيها: أنها للتشبيه، والمعنى: كما أخرجك ربك –يا محمد– من بيتك بالحق على كُرْه من فريق من المؤمنين، كذلك هم يكرهون القتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم.

كما قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: 216].

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ (6).

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ.

أي: إنَّ المُؤمنينَ الذين كَرِهوا لقاءَ كُفَّارِ قُريشٍ يومَ بَدرٍ، يجادلونك- يا محمَّدُ- في الحقِّ الذي أرادَه اللهُ تعالى ورَضِيَه لنُصرةِ دِينِه، وإعلاءِ كلِمَتِه، مِن بَعدِ ما وضَحَ وظَهرَ، فخُروجُك خروجُ حَقٍّ مصحوبٌ بالوَعدِ مِن اللهِ بالنَّصرِ والظَّفَرِ؛ إمَّا بالعِيرِ وإمَّا بالنَّفيرِ، ومع هذا قالوا: لم نعلَمْ أنَّا سنلقَى العدُوَّ فنتهيَّأَ

وثالثها: أنها للتشـــبيه، والمعنى: أصـــلحوا ذات بينكم، فإن ذلك خير لكم، كما أخرج الله محمدًا – ﷺ – من بيته بالحقّ، فكان خيرًا له.

ورابعها: أنها للتشبيه، والمعنى: يسألونك عن الأنفال مجادلةً، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعِير، ولم تعلمنا قتالًا فنستعدَّ له.

وخامسها: أنّ الكاف للقسم، بمعنى الواو، والمعنى: لهم درجات ومغفرة ورزق كريم والذي أخرجك.

وعلَّق ابن عطية (٤/ ١٣٨) على القولين: الأول، والثاني، بقوله: «هذان قولان مُطَّرِدان، يَتِمُّ بهما المعنى، ويحسن رَصْف اللفظ».

ورجَّحَ ابن جرير (١١/ ٣٥) القولَ الثانيَ، وهو قول مجاهد والسـديّ، اسـتنادًا إلى أحوال النزول والسـياق، فقال: «أوْلى هذه الأقوال عندي بالصـــواب قولُ من قال في ذلك بقول مجاهد، وقال: معناه: كما أخرجك ربك بالحقّ على كُرْه من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين؛ لأن كلا الأمرين قد كان، أعني: خروج بعض من خرج من المدينة كارهًا، وجدالهم في لقاء العدو وعند دنوّ القوم بعضهـم من بعض، فتشـبيه بعض ذلك ببعض، مع قرب أحدهما من الآخر، أولى من تشبيهه بما بَعُد عنه».

لقتالِهم، ونأخُذَ أُهْبَةَ الحَربِ، وإنَّما خرَجْنا طلبًا للغَنائمِ مِن عِيرِ قُريشٍ دون حَربٍ نخوضُ غِمارَها، فلو يُرخِّصُ لنا في تَركِ القِتالِ.[19]

كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ.

أي: هؤلاءِ الذينَ يُجادِلونَك- يا محمَّدُ- في لِقاءِ العَدُوِّ، كأنَّ حالَهم- لشِدَّةِ كَراهَتِهم للقتالِ إذا دُعُوا إليه- كحالِ من يُقدَّمُ إلى الموتِ، وهو يراه عِيانًا.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7).

---

(19) اختُلِف في المراد بالحقّ، وفي المجادلين فيه، في قوله تعالى: ﴿يجادلونك في الحقّ﴾ على قولين: أحدهما: أنّ المراد بالحق: القتال، والمجادلون فيه: المؤمنون.

وهذا قول ابن عباس، وابن إسحاق.

والآخر: أنّ المراد بالحق: شريعة الإسلام، والمجادلون فيه: المشركون.

وهذا قول ابن زيد.

ورجَّحَ ابن جرير (١١/ ٣٨ - ٣٩)، وابن كثير (٧/ ٢١) القول الأول، وانْتَقَدا القول الثاني استنادًا إلى السياق، فقال ابن جرير: «الصواب من القول في ذلك: ما قاله ابن عباس وابن إسحاق، من أن ذلك خبرٌ من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو، وكان جدالهم نبيَّ الله - ﷺ - أن قالوا: لم يُعلمنا أنّا نَلْقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعِير.

ومما يدلّ على صحته قولُه: ﴿وإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إحدى الطّائِفَتَيْنِ أنَّها لَكُمْ وتَوَدُّونَ أنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، ففي ذلك الدليلُ الواضح لمن فَهِم عن الله، أنّ القوم قد كانوا للشوكة كارهين، وأنّ جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد؛ كراهيةً منهم له.

وأن لا معنى لما قال ابن زيد؛ لأنّ الذي قبل قوله: ﴿يجادلونك في الحق﴾ خبرٌ عن أهل الإيمان، والذي يتلوه خبرٌ عنهم، فأن يكون خبرًا عنهم أوْلى منه بأن يكون خبرًا عمن لم يجرِ له ذكرٌ».

وقال ابنُ كثير: «هذا الذي نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذي يدل عليه سياق الكلام».

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ.

واذكُرُوا- أيُّها المُؤمنونَ- حين أوحَى اللهُ إلى رسولِه يعِدُه الظَّفَرَ بغنيمةِ إحدى الفِرقَتينِ؛ إمَّا العيرِ أو النَّفيرِ.[20]

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ.

أي: وتُحِبُّونَ أن تكونَ لكم الطَّائفةُ الأُخرى التي ليسَتْ لها مَنعةٌ، ولا معها سِلاحٌ، فلا يُمكِنُها أن تُحارِبَ وتقاتِلَ، وهي العِيرُ.

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ.

أي: ويُريدُ اللهُ تعالى أن يجمَعَ بينَكم وبينَ الطَّائفةِ الأُخرَى ذاتِ الشَّوكةِ؛ ليُظفِرَكم بهم، فيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، ويُعليَه على الأديانِ كلِّها، وذلك بأمْرِه لكم- أيُّها المؤمنونَ- بقِتالِ تلك الطَّائفةِ مِن كُفَّارِ قُريشٍ.[21]

---

(20) قال الشِّــنقيطي: (المرادُ بالطَّائِفَتينِ هنا -كما أطبَقَ عليه عامَّةُ المُفسِّــرين- هما العِيرُ والنَّفيرُ؛ العِير: الإبِلُ تَحمِلُ المتاعَ، والنَّفيرُ: الجيشُ في سِلاحِه وعَدَدِه وعُدَدِه).

((العذب النمير)) (489/4).

(21) اختار ابنُ جريرٍ أنَّ قَولَه تعالى: بِكَلِمَاتِهِ هنا، يعني: أمْرَه للمؤمنينَ بقِتالِ الكُفَّارِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (49/11).

واختار الواحديُّ أنَّ المرادَ بها: كَلِماتُ الآياتِ التي وعدَ فيها المؤمنينَ بالنَّصرِ يومَ بَدرٍ.

يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (445/2).

ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (525/4-527).

وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ.

أي: ويريدُ أن يستأصِلَ الكُفَّارَ، ويُهلِكَهم عن آخِرِهم، فلا يبقَى منهم أحدٌ.

لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8).

أي: ويريدُ اللهُ تعالى قَطعَ دابِرِ الكافِرينَ؛ مِن أجلِ أن يُعِزَّ الإسلامَ، ويُظهِرَه ويُعليَ شأنَه، ويُبطِلَ عبادةَ غيرِ الله، فيزول الشركُ، ولا تبقَى إلَّا عبادةُ اللهِ تعالى وَحدَه، ولو كَرِه ذلك المُشركونَ الذين أجرَموا، فاكتَسَبوا المآثِمَ والأوزارَ، التي يستحقُّونَ عليها العقابَ، وحُلولَ العَذابِ.

ذكر ابنُ عطية (٤/١٤١) أنّ المعنى في قوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾يحتمل احتمالين: الأول: أن يريد: بأوامره وأمره للملائكة والنصر لجميع ما يظهر الإسلام.

الثاني: أن يريد: بكلماته التي سبقت في الأزل، ثم علَّق بقوله: «والمعنى قريب».

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (9–11)

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (11)

غريب الكلمات:

تَسْتَغِيثُونَ: أي: تَستجيرونَ، وتدعون بالنَّصرِ، والاستغاثةُ: طَلَبُ الغَوثِ والمَعُونةِ والنَّصرِ.

مُرْدِفِينَ: أي: مُتَتابِعينَ، وأصلُ (ردف): يدلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ.

يُغَشِّيكُمُ: أي: يُلقِي عليكم. والغشاوةُ: الغطاءُ والساترُ، وأصلُ (غشي) يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ.

النُّعَاسَ: أي: النَّومَ القليلَ، أو أوَّلَ النَّومِ، وهو ما كان مِنَ العينِ، وهو فُتورٌ يَعتري الإنسانَ، ولا يفقِدُ معَه عقلَه.

أَمَنَةً: أي: أمنًا وأمانًا، وأصلُ الأمنِ: طمأنينةُ النفسِ، وزوالُ الخوفِ، وسكونُ القلبِ.

رِجْزَ الشَّيْطَانِ: أي: وساوِسَه، وأصلُ الرِّجْزِ: الاضطرابُ.

وَلِيَرْبِطَ: أي: لِيشُدَّ، وأصلُ (ربط) يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ.

تفسير الآيات:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ (9).

سبَبُ النُّزولِ:

عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ، نظرَ رسولُ اللهِ - ﷺ - إلى المشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمئةٍ وتسعةَ عشرَ رجلًا، فاستقبَلَ نبيُّ اللهِ - ﷺ - القبلةَ، ثم مدَّ يدَيه فجعَلَ يهتِفُ بربِّه؛ اللهمَّ أَنجِزْ لي ما وعدْتَني، اللهمَّ آتِ ما وعدتَني، اللهمَّ إنْ تَهلِكْ هذه العصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زال يهتِفُ بربِّه، مادًّا يدَيه، مستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقطَ رداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التزَمَه مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ اللهِ، كفاك مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ)).[22]

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ.

أي: إذ[23] تدعونَ ربَّكم، وتَطلُبونَ منه أن يُعينَكم، وينصُرَكم على العدوِّ؛ لقلَّتِكم.

---

(22) رواه مسلم (1763).

(23) قال الشنقيطيُّ: (قوله: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ قال بعضُ العلماءِ: (إذ) منصوبٌ بـــ (اذكر) مقدرًا، وقد ذكرنا أنَّه يكثرُ في القرآنِ نصـــبُ الظرفِ الذي هو (إذ) بلفظةِ (اذكر) كقولِه: وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ [الأحقاف: الآية 21] وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً [الأعراف: الآية 86] وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ [الأنفال: الآية 26] ونحو ذلك.

فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ.

أي: فأجاب اللهُ تعالى دعاءَكم، بأنَّني مُقوِّيكم بألفٍ مِن الملائكةِ، يأتونَ إليكم مُتتابِعينَ للقِتالِ معكم، بعضُهم في إثرِ بَعضٍ.(24)

قال بعضُ العلماءِ: (إذ) في قوله: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ بدلٌ مِن (إذ) في قوله: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ [الأنفال: الآية 7]).

((العذب النمير)) (530/4)، ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (504/2).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ «إذ» متعلقةٌ بـ«يبطل»، والمعنى: ويُبْطِلَ الباطِلَ حِينَ تَسْتَغيثونَ رَبَّكم.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (50/11).

(24) قال ابنُ كثير (٢٧/٧): «المشـــهور ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة».

ذكر ابنُ عطية (١٤٣/٤) أنه رُوِي في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر، ونقل أنه قيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت، وانتقده، بقوله: «وهذا ضعيف».

ذكر ابنُ عطية (٤/ ١٤٢ – ١٤٣ بتصـــرف) أن ابن عباس فســـر الإرداف بأنه: خلف كل ملَك ملك، ثم علَّق بقوله: «وهذا معنى التتابع، يقال: ردف وأردف إذا أتبع وجاء بعد الشـــيء».وذكر قولًا بأن معنى «مردفين»: أن كل ملك أردف مَلَكًا وراءه، وانتقده بأنه: «قول ضعيف، لم يأت بمقتضاه رواية».

وبين أن قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ معناه: متبعين، ثم قال: «ويحتمل أن يراد بالمردَفين: المؤمنين، أي: أُرْدِفوا بالملائكة فــ ﴿مُرْدِفِينَ﴾ على هذا حال من الضـــمير في قوله: ﴿مُمِدُّكُمْ﴾، ويحتمل أن يراد به: الملائكة، أي: أردف بعضـــهم ببعض، وهذه القراءة بفتح الدال وهي قراءة نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم، وقرأ ســـائر الســـبعة غير نافع ﴿مردِفين﴾ بكســـر الدال، وهي قراءة الحسن ومجاهد، والمعنى فيها: تابَع بعضهم بعضًا،، ويحتمل أن يراد: مردِفين المؤمنين.

ويحتمل أن يراد: مردفين بعضهم بعضًا».

قال ابنُ القيم (١/ ٤٣٧): «إن قيل: ها هنا ذكر أنه أمدهم بألف، وفي سورة آل عمران قال: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾، فكيف الجمع بينهما؟ قيل: قد اختُلِف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أحد، وكان إمدادًا مُعَلقًّا على شرط، فلما فات شرطه فات الإمداد.

وهذا قول الضحاك، ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني: أنه كان يوم بدر.

وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والرواية الأخرى عن عكرمة، اختاره جماعة من المفسرين.

عن ابنِ عبَّاس رضِي الله عنهما، قال: ((بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ يشتدُّ في أثر[25] رجلٍ من المشركين أمامَه، إذ سمع ضربَةً بالسوطِ فوقَه، وصوتُ الفارسِ يقول: أقْدِم حَيزومُ، فنظر إلى المشركِ أمامه فخرَّ مُستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطم[26] أنفُه، وشُقَّ وجهُه كضربةِ السوطِ، فاخضرَّ ذلك

وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك؛ فإنه سبحانه قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ [آل عمران: ١٢٣ – ١٢٥] إلى أن قال: ﴿وما جعله الله﴾ أي: هذا الإمداد ﴿إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾.

قال هؤلاء: فلما استغاثوا أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، فكان هذا التدريج ومتابعة الإمداد أحسن موقعًا، وأقوى لنفوسهم وأسرّ لها من أن يأتي به مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي، ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أُحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضًا في أثنائها؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ [آل عمران: ١٢١] ثم قال: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾، فذَكَّرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أُحد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى.

وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف.

وهذا مُعلَّق على شرط، وذلك مطلق.

والقصة في سورة آل عمران هي قصة أُحُد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضًا، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾ [آل عمران: ١٢٥] قد قال مجاهد: إنه يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه، فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد».

(25) يشتدُّ في أثَرِ رجلٍ: أي: يُسرِعُ ويَعدُو في عَقِبِ رَجُلٍ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (3782/9).

(26) خُطِمَ (بضم الخاء): أي: جُرِحَ، وظَهَر عليه أثَرُ الضَّرب.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (210/6)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (3782/9).

أجمعُ،[27] فجاء الأنصاريُّ فحدَّثَ بذلك رسولَ اللهِ – ﷺ –، فقال: صدقْتَ، ذلك مِن مدَدِ السَّماءِ الثَّالثةِ، فقتلوا يومئذٍ سبعين، وأسَروا سبعين)).[28]

وعن رفاعةَ بنِ رافعٍ رضي الله عنه، قال: ((جاء جبريلُ إلى النبيِّ – ﷺ – فقال: ما تعُدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: من أفضلِ المسلمين. أو كلمةً نحوَها، قال: وكذلك من شَهِد بدرًا من الملائكةِ)).[29]

وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10).

وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى.

أي: وما جعل اللهُ تعالى هذا الإمدادَ إلَّا ليكونَ بِشارةً لكم بالنَّصرِ.[30]

---

(27) فاخضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ: أي: اسودَّ أثرُ تلك الضَّربة كلُّه؛ فإنَّ الخُضرةَ قد تُستعمَلُ بمعنى السَّوادِ، كعكسِه، للمُبالغةِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (210/6)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (3782/9).

(28) رواه مسلم (1763).

(29) رواه البخاري (3992).

(30) قال ابنُ عطية (٤/ ١٤٣ – ١٤٤): «الضـمير في ﴿جعله﴾ عائد على الوعد ....، وهذا عندي أمكن الأقوال من جهة المعنى.
وقال الزجاج: الضمير عائد على المدد، ويحتمل أن يعود على الإمداد، وهذا يحسن مع قول مَن يقول: إن الملائكة لم تقاتل، وإنما أنست بحضورها مع المسلمين.
قال القاضي أبو محمد: وهذا عندي ضعيف، تردّه الأحاديث الواردة بقتال الملائكة، وما رأى من ذلك أصحاب النبي – ﷺ – كابن مسعود وغيره.
ويحتمل أن يعود على الإرداف، وهو قول الطبري، وهذا أيضًا يجري مجرى القول الذي قبله.
ويحتمل أن يعود على الألْف، وهذا أيضًا كذلك؛ لأن البشرى بالشيء إنما هي ما لم يقع بعد».

وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ.

أي: وأمدَّكم بالملائكةِ؛ لِتسكُنَ قُلوبُكم بمَقْدَمِها إليكم، ويزولَ عنها القَلقُ والانزعاجُ والمخاوِفُ، وتُوقِنَ بنَصرِ اللهِ لكم.

وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ.

أي: لن تُنصَروا على عَدُوِّكم إلَّا أن ينصُرَكم اللهُ تعالى عليهم؛ لأنَّ الأمرَ كُلَّه له، والنَّصرَ بِيَدِه وَحْدَه، فلا تظنُّوا- إن أنزَلْتُ عليكم ألفًا من الملائكةِ- أنَّ النَّصرَ بأيديهم.

إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

إنَّ اللهَ الذي ينصُرُكم، عزيزٌ: لا يقهَرُه شيءٌ، ولا يغلِبُه غالِبٌ، بل يَقهَرُ كلَّ شَيءٍ، ويَغلِبُه فيَخذُلُ مَن بَلَغوا من الكثرةِ وقُوَّةِ العَدَدِ والآلاتِ ما بَلَغوا، حكيمٌ: يُقدِّرُ الأمورَ بأسبابِها، ويضَعُ الأشياءَ مواضِعَها، ومِن ذلك شَرْعُه قتالَ الكفَّارِ، مع قُدرتِه على دمارِهم وإهلاكِهم، حكيمٌ في تدبيرِه وفي نصرِه مَن نَصَر، وخِذلانِه مَن خَذَل، ولا يدخُلُ تدبيرَه وَهَنٌ ولا خلَلٌ.[31]

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (11).

(31) قال ابنُ عطية (٤/ ١٤٤): «هذه القصة كلها -مِن قصة الكفار، وغلبة المؤمنين لهم- تليق بها مِن صفات الله – عز وجل – العزة والحكمة إذا تُؤُمِّل ذلك».

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ.

أي: واذكُرُوا حينَ ألقى اللهُ تعالى عليكم النُّعاسَ؛ لأجلِ أن تَكونُوا آمنينَ، ليس في قلوبِكم خوفٌ ولا جزعٌ مِن عَدُوِّكم.[32]

وهذا قد وقع يومَ أحدٍ أيضًا، كما قال تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ... [آل عمران: 154].

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ.

أي: وينزِّلُ اللهُ تعالى عليكم مِن السَّماءِ مَطرًا؛ لِيُطهِّرَكم به مِن الأحداثِ والجَنابات.

وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ.

أي: وأنزَلَ ذلك المطَرَ؛ لِيُذهِبَ عنكم وساوِسَ الشَّيطانِ، وخَواطِرَه السَّيئةَ.

وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ.

أي: وأنزلَ عليكم المطَرَ؛ لِيُقَوِّيَ قلوبَكم، ويشُدَّها فتثبُتَ، ولا تضطرِبَ بوساوِسِ الشَّيطانِ، وتمتلِئَ باليقينِ والنَّصرِ، وتقوَى على الصَّبرِ، والإقدامِ على مُقاتلةِ الأعداءِ.

---

(32) عن عبد الله بن مسعود –من طريق أبي رَزِينٍ– قال: النعاس في القتال أَمَنَةٌ من الله، وفي الصلاة من الشيطان.

أخرجه عبد الرزاق ٢/٢٥٦، وابن جرير ١١/٥٩، وابن أبي حاتم ٥/١٦٦٤.

علَّقَ ابنُ عطية (٤/١٤٦) على قول ابن مسعود هذا بقوله: «هذا إنما طريقه الوحي، فهو لا محالة إنما يسنده».

وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ.

أي: وأنزل عليكم المطَرَ ليلبِّدَ[33] لكم الأرضَ؛ فتَثبُتَ عليها أرجُلُكم، ولا تغوصَ فيها.[34]

(33) ليلبِّدَ لكم الأرضَ: أي: يجعَلَها قويَّةً لا تسوخُ فيها الأقدامُ.

يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (386/3)، ((تاج العروس)) للزبيدي (132/9).

(34) قال ابنُ كثيرٍ: (وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ أي: بالصَّبرِ والإقْدامِ على مُجالدةِ الأعداءِ، وهو شجاعةُ الباطنِ، وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ وهو شجاعةُ الظَّاهرِ).

((تفسير ابن كثير)) (24/4).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (12–14)

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13) ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14)

غريب الكلمات:

الرُّعْبَ: أي: الجَزَعَ والهَلَع والخوفَ، وقيل: الرُّعب هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ الرُّعب: يدلُّ على الخوفِ، والملءِ، والقَطع.

بَنَانٍ: أي: أطرافِ أصابعِ اليَدينِ والرِّجلَينِ، واشتِقاقُه مِن قَولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقام، فالبَنانُ به يُعْتَمَدُ كلُّ ما يكونُ للإقامَةِ والحَياةِ.

شَاقُّوا: أي: حَاربُوا، أو خَالَفُوا وجانبوا، وأصلُ (شقق): يدلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (12).

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ.

أي: اذكُرْ– يا مُحَمَّدُ– وقتَ أن أوحَى رَبُّك إلى الملائكةِ [35]– الذينَ أمدَّ بهم حِزبَه المؤمنين– أنِّي مَعَكم بِالعَونِ والنَّصرِ والتَّأييدِ.[36]

فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ.

أي: فقَوُّوا عزمَ المُؤمنينَ يومَ بَدرٍ، وصَحِّحوا نيَّاتِهم في قتالِ عَدُوِّهم، وجَرِّئوهم عليهم، وألْقُوا في قلوبِهم الأمنَ والطُّمأنينةَ، وأعينُوهم على القتالِ، وبَشِّروهم بالنَّصرِ.[37]

---

(35) قيل: يُمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إلهامٍ، ويمكِنُ أن يكونَ وَحيَ إعلامٍ.

يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (548/4).

(36) وقيل: العاملُ في إذْ، «يُثَبِّت» أي يُثَبِّت به الأقدامَ ذلك الوقتَ.

وقيل: العاملُ «ليربط» أي: وليربط إذ يُوحِي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (378/7)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (548/4).

(37) قال ابن عطية (٤/ ١٤٩ – ١٥٠ بتصـــرف): «قوله: ﴿فثبتوا﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما روي، ويحتمل بالحضـــور في حَيّزهم والتأنيس لهم بذلك، ويحتمل أن يريد: فَثَبِّتوهم بأقوال مُؤْنِسَـــة مُقَوّيَة للقلب، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة الآدميين، فكان أحدهم يقول للذي يليه من المؤمنين: لقد بلغني أن الكفار قالوا: لئن حمل المسلمون علينا لننكشفن.

ويقول آخر: ما أرى الغلبة والظفر إلا لنا.

سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ.

أي: سأُرعِبُ قلوبَ الذينَ كفروا بي، فخالَفُوا أمري، وكذَّبُوا رسولي، وأملَؤُها خوفًا شديدًا حتى ينهزِموا.

كما قال تعالى في سياقِ الحديثِ عن غزوةِ أحُدٍ: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ [آل عمران:151].

وقال سبحانه: وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا [الأحزاب: 26].

ويقول آخر: أقدِمْ يا فلان.

ونحو هذا من الأقوال المثبتة ...، ويحتمل أيضًا أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يلقيه الملك في قلب الإنسان بلمته مِن تَوَهُّم الظَّفَر واحتقار الكفار، ويجري عليه من خواطر تشجيعه، ويقوّي هذا التأويل مطابقة قوله تعالى: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾، وإن كان إلقاء الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيت، ولكنه أشبه بهذا؛ إذ هي من جنس واحد ...، وعلى هذا التأويل يجيء قوله: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ مخاطبة للملائكة، ثم يجيء قوله تعالى: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول -إذا وصفت حربًا لمن تخاطبه-: لقينا القوم وهزمناهم، فاضرب بسيفك حيث شئت، واقتل، وخذ أسيرك.

أي: هذه كانت صفة الحال ...، ويحتمل أن يكون ﴿سألقي﴾ إلى آخر الآية خبرًا يخاطب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي، ثم أمرهم بضرب الرقاب والبنان تشجيعًا لهم وحضًّا على نصرة الدين».

وبنحوه قال ابنُ جرير (١١/ ٦٩)، وابنُ كثير (٧/ ٣٢).

وقال ابنُ القيم (١/ ٤٣٨): «قيل في تفسيرها: قَوُّوا قلوبهم، وبَشِّروهم بالنصر.

وقيل: احضروا معهم القتال.

والقولان حقٌّ؛ فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم».

وقال عزَّ وجلَّ: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ [الحشر: 2].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((أُعطِيتُ خمسًا، لم يُعطَهنَّ أحدٌ منَ الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[38]...)) الحديث.[39]

فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ.

أي: فاضربوا أيُّها الملائكةُ رؤوسَ المُشركينَ،[40] فحُزُّوها، وأعناقَهم فاقْطَعُوها.[41]

---

(38) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: أنَّ الأعداءَ يَخافونَني ويقَعُ في قُلوبِهم الفَزَعُ وبيني وبينهم مسيرةُ مَسافةِ شهرٍ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (91/6)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (41/3).

(39) رواه البخاري (438)، ومسلم (521).

(40) هذا اختيارُ الواحديّ، والقرطبيّ، وابنِ عاشورٍ، والشنقيطيّ.
يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (448/2)، ((تفسير القرطبي)) (378/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (283/9)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (550/4).
وقيل: هذا الأمرُ مِن اللهِ تعالى موجَّهٌ إلى المؤمنينَ، يُعَلِّمُهم كيفيَّةَ قَتلِ المُشركينَ وضَربِهم.
وهذا اختيارُ ابنِ جريرٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (71/11).

(41) واختلف المفسِّرون في معنى قولِه تعالى: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ فقيل: معناه: اضرِبوا الرُّؤوسَ.
وهذا اختيارُ الواحديّ.
يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (448/2).
وممن ذهب إليه مِن السَّلف عكرمةُ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (71/11).
وقيل معنى: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ أي: على الأعناقِ، وهي الرِّقاب.

قال تعالى للمؤمنين: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ [محمد: 4].

وهذا اختيارُ ابنِ عاشورٍ، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 316)، ((تفسير ابن عاشور)) (283/9).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (25/4).

وممَّن ذهب من السَّلف إلى أنَّ المعنى اضْرِبوا الأعناقَ عَطِيَّةُ والضَّحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (70/11).

ورجَّح ابنُ جريرٍ القَولَ بالعُمومِ، وأنَّ المُرادَ: الرُّؤوسُ والأعناقُ.

فقال: (قَولُه: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ مُحتَمِلٌ أن يكونَ مرادًا به الرُّؤوسُ، ومُحتَمِلٌ أن يكونَ مُرادًا به فوقَ جِلدةِ الأعناقِ، فيكون معناه: على الأعناقِ، وإذا احتمَلَ ذلك صَحَّ قَولُ مَن قال: معناه الأعناقُ، وإذا كان الأمرُ مُحتَمِلًا ما ذكَرْنا من التَّأويلِ، لم يكُنْ لنا أن نُوجِّهَه إلى بعضِ معانيه دون بعضٍ إلَّا بحُجَّةٍ يجِبُ التَّسليمُ لها، ولا حُجَّةَ تَدُلُّ على خُصوصِه، فالواجِبُ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أمَرَ بِضَرْبِ رُؤوسِ المُشركِينَ وأعناقِهم وأيديهم وأرجُلِهم، أصحابَ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، الذين شَهِدوا معه بَدرًا).

((تفسير ابن جرير)) (71/11).

وقال الزمخشري: (أراد أعاليَ الأعناقِ التي هي المذابحُ؛ لأنَّها مفاصلُ، فكان إيقاعُ الضربِ فيها حزًّا وتطييرًا للرؤوسِ).

((تفسير الزمخشري)) (204/2).

وقال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ عندي أن يريدَ بقولِه: فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وصفَ أبلغِ ضرباتِ العنقِ وأحكمِها، وهي الضربةُ التي تكونُ فوقَ عظمِ العنقِ، ودونَ عظمِ الرأسِ في المفصلِ).

((تفسير ابن عطية)) (508/2).

وقال الشنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ وأقرَبُها للصَّوابِ ما قالَه بعضُ العُلَماءِ: أنَّ الله علَّمَ الملائكةَ أو أصحابَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم حَزَّ الرُّؤوسِ، وبيَّنَ لهم مَفصِلَ الرَّأسِ الذي يُطيرُ الرَّأسَ عن الجُثَّةِ، وأنَّه فَوقَ الأعناقِ؛ لأنَّ الرَّقبةَ المحِلُّ الذي تُركَّبُ منه في الرأسِ هو مَفصِلٌ للحَزِّ، إذا ضَرَبَه الإنسانُ طار الرَّأسُ بِسُرعةٍ، وكان ذلك أهونَ لإبانةِ الرَّأسِ).

((العذب النمير)) (552/4).

وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ.

أي: واضرِبُوا مِن المُشركينَ كُلَّ طَرَفٍ ومَفصِلٍ مِن أطرافِ أصابعِ أيديهم وأرجُلِهم.(42)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (13)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ.

أي: هذا الفِعلُ مِن ضَربِ هؤلاءِ المُشركينَ فَوقَ الأعناقِ، وضَربِ كُلِّ بنانٍ منهم، وتسليطِ أوليائِه عليهم، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم- إنَّما هو جزاءٌ وعقابٌ لهم؛ لأنَّهم فارَقُوا أمرَ اللهِ ورسولِه، وحارَبُوهما وخالَفُوهما، فساروا في شِقٍّ، وتَرَكوا الحَقَّ في شِقٍّ آخَرَ.(43)

---

(42) رجَّحَ ابن عطية (٤/ ١٥١) أنّ البنان: أطراف الأصابع، فقال: «هذا هو القول الصحيح.
فعلى هذا التأويل -وإن كان الضرب في كل موضع مباحًا- فإنما قصد أبلغ المواضع؛ لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر، ولم ينتفع بشيء من أعضائه في مكافحة وقتال».
وهذا ما ذَهَبَ إليه ابن جرير (١١/ ٧٢) أيضًا.

(43) قال ابنُ عطية (٤/ ١٥١ - ١٥٢): «﴿شاقوا﴾ معناه: خالفوا ونابذوا وقطعوا، وهو مأخوذ من الشّق وهو القطع والفصل بين شيئين، وهذه مفاعلة فكأن الله لما شرع شرعًا وأمر بأوامر وكذبوا هم وصدوا تباعد ما بينهم وانفصل وانشق، والشّق مأخوذ من هذا لأنه مع شقه الآخر تباعدا وانفصلا».
ثم ذكر أن المفسرين قالوا بأن قوله: ﴿شاقُّوا﴾ معناه: صاروا في شق غير شقه.
ثم علَّق بقوله: «وهذا وإن كان معناه صحيحًا فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه».

وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: ومَن يخالِفْ أمرَ اللهِ وأمْرَ رَسولِه، ويفارِقْ طاعَتَهما؛ فإنَّ اللّهَ يُعاقِبُه، وهو سبحانَه شَديدُ العقابِ لِمَن أراد عِقابَه، ومِن ذلك تسليطُ أوليائِه عليه في الدُّنيا.

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (14).

ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ.

أي: هذا هو العذابُ والنَّكالُ الذي جعَلْتُه لكم- أيُّها الكافِرونَ المُشاقُّونَ للهِ ورَسولِه- فذوقوه مُعجَّلًا في الدُّنيا.

وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ.

أي: واعلموا أنَّ لكم ولِغَيرِكم مِن الكفَّارِ أيضًا عذابًا مُؤجَّلًا في النَّارِ، في الدَّارِ الآخِرةِ.

سُورةُ الأنفالِ

الآيتان (15–16)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16)

غريب الكلمات:

زَحْفًا: أي: متقاربًا بعضُكم إلى بعضٍ، والزَّحفُ تقارُبُ القَومِ إلى القَومِ في الحَربِ، أو الدُّنوُّ قليلًا قليلًا، وأَصلُ (زحف): يدلُّ على الاندفاعِ، والمُضِيّ قُدُمًا.

فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ: أي: لا تَفِرُّوا مِنهم، وتُعْطوهم ظُهورَكم، ويقال: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزم، والتولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصْل الدُّبر: آخِرُ الشيءِ وخلفُه، ضد القُبلِ.

مُتَحَرِّفًا: أي: مائلًا لأجلِ القِتالِ، لا مائلًا هزيمةً؛ بأنْ يُريَهم الفَرَّةَ مكيدةً، وهو يريدُ الكَرَّةَ، وأصلُ (حرف): يدل على العُدُولِ، والانحرافِ عن الشَّيءِ.

مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ: أي: مُنضمًّا إلى جماعةٍ، وأصلُ (حوز) يدلُّ على الجَمعِ والتجمُّعِ.

بَاءَ: أي: رجَع، وانْصَرف، ولا يُقالُ: باء إلَّا موصولًا إمَّا بخيرٍ وإمَّا بشَرٍّ، وأَصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ.

وَمَأْوَاهُ: أي: مصيرُه، ومقامُه، والمأوى مصدرُ أَوَى، يُقال: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه يأوي أويًا ومأوًى، وأصْلُه: التَّجمُّع.

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (15).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا قابَلْتم الكفَّارَ، وقد دَنَوْا إليكم لِقتالِكم، ودَنَوتُم إليهم لِقتالِهم، فاقتَرَب بعضُكم مِن بَعضٍ.

فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ.

أي: فحِينئذاك لا تُولُّوهم ظُهورَكم فرارًا منهم، فتَنهَزِموا عنهم، ولكنِ اثبُتُوا لقتالِهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا [الأنفال: 45].

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16).

وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ.

أي: ومَن يُوَلِّ الكُفَّارَ ظَهْرَه في ذلك الوَقتِ.

إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ.

أي: إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه، فينعطِفُ وينحَرِفُ عن اتِّجاهِه؛ ليخدَعَ عَدُوَّه ويُوهِمَه- مكيدةً له ومَكرًا به- أنَّه قد فرَّ منه، وخاف وانهزَمَ، ثم يكِرُّ عليه، فيكونُ ذلك أمكنَ له في قِتالِه، أو أنكى لعَدُوِّه، فلا بأسَ عليه في ذلك.

أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ.

أي: أو إلَّا مَن يُوَلِّيهم ظَهْرَه؛ ليتنحَّى إلى حيِّزِ جماعةٍ أخرى مِن المُسلِمينَ، يريدونَ العودةَ إلى القِتالِ، فيعودُ معهم فيعاونُهم ويعاونونَه،[44] فيجوزُ له ذلك.[45]

---

(44) عن الحسن البصري -من طريق المبارك- ﴿أو متحيزا إلى فئة﴾، قال: ذلك يوم بدر، إذا ترك النبي ﷺ فأين يذهب؟ فمن فاء اليوم إلى مصر من الأمصار فقد فاء.

أخرجه ابن أبي حاتم ١٦٧١/٥، وابن جرير ٧٩/١١ وآخره بلفظ: فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال: فلا بأس به.

بيَّنَ ابنُ كثير (٣٩/٧) حُجَّةَ مَن قال بهذا القول بقوله: «حجتهم في هذا: أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك، كما قال النبي ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»».

(45) قال ابنُ عطية (٤/ ١٥٥ بتصرف): «الفئة ها هنا: الجماعة من الناس الحاضرة للحرب، هذا على قول الجمهور في أنّ الفرار من الزحف كبيرة.

وأما على القول الآخر فتكون الفئة: المدينة، والإمام، وجماعة المسلمين حيث كانوا.

روي هذا القول عن عمر – رضي الله عنهما – وأنه قال: أنا فئتكم أيها المسلمون.

وهذا منه على جهة الحيطة على المؤمنين؛ إذ كانوا في ذلك الزمن يثبتون لأضعافهم مرارًا».

قال السَّعدي: (فإن كانت الفئةُ في العَسكرِ، فالأمرُ في هذا واضِحٌ، وإن كانت الفِئةُ في غيرِ محَلِّ المعركةِ كانهزامِ المسلمينَ بين يدي الكافرينَ، والتجائِهم إلى بلدٍ مِن بُلدانِ المُسلِمينَ، أو إلى عسكرٍ آخَرَ مِن عسكرِ المُسلمين، فقد ورد مِن آثارِ الصَّحابةِ ما يدُلُّ على أنَّ هذا جائزٌ، ولعل هذا يُقَيَّدُ بما إذا ظَنَّ المسلمونَ أنَّ الانهزامَ أحمَدُ عاقبةً، وأبقَى عليهم.

فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ.

أي: مَن ولَّاهم الدُّبُرَ بعد الزَّحفِ لقتالٍ، مُنهَزِمًا- بغيرِ نيَّةِ إحدى الخَلَّتينِ اللَّتينِ أباح اللهُ التَّوليَةَ بهما- فقد رَجَعَ بِغَضبٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ.

أي: ومَصيرُه الذي يصيرُ إليه يومَ القِيامةِ، ومُنقَلَبُه ومَقَرُّه؛ نارُ جهنَّمَ.(46)

أمَّا إذا ظنُّوا غلَبَتَهم للكُفَّارِ في ثباتِهم لقتالِهم، فيَبعُدُ- في هذه الحالِ- أن تكونَ مِن الأحوالِ المُرخَّصِ فيها، لأنَّه- على هذا- لا يُتصَوَّرُ الفِرارُ المنهيُّ عنه، وهذه الآيةُ مُطلقةٌ، وسيأتي في آخِرِ السورةِ تَقييدُها بالعَدَدِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 317).

(46) قال الواحدي: (قولُه: وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ لا يدلُّ على التَّخليدِ، ومعناه: أنَّ مَرجِعَه إليها إلى وقتِ الرَّحمةِ والشَّفاعةِ).

((التفسير الوسيط)) (450/2).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (384/7).

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أي: وبِئسَ الموضِعُ الذي يصيرُ إليه.(47)

وقال تعالى عمَّن ولَّى من المسلمين دُبرَه فرارًا مِن المشركينَ، يومَ تلاقَى الفريقانِ بأُحُدٍ: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ [آل عمران: 155].(48)

---

(47) عن بلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ، عن أبيه، عن جدِّه، أنه سمِع النبي ﷺ يقول: «مَن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القَيُّوم وأتوب إليه.

غُفِر له وإن كان فَرَّ من الزَّحْف» أخرجه أبو داود ٢/٦٢٧ (١٥١٧)، والترمذي ٦/١٧٤-١٧٥ (٣٨٩٤).

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/٣١٠-٣١١ (٢٥٠٩): «إسناده جيد متصل».

وقال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ص٣٧٠: «رجاله موثوقون».

وقال الألباني في صحيح أبي داود ٥/٢٤٨ (١٣٥٨): «حديث صحيح».

علَّقَ ابنُ كثير (٣٩/٧) على هذا الحديث، بقوله: «لا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ عنه سواه».

(48) اختُلِف في حكم هذه الآية، هل هو في أهل بدر خاصّــــة، أم هو في المؤمنين جميعًا؟ على قولين: أحدهما: أنه لأهل بدر خاصّة، ثم نُسِخ.

والآخر: أنّ الآية محكمة، وحكمها ثابت في كلّ المؤمنين.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ٨٢) القول الثاني، وهو قول ابن عباس -من طريق عليّ بن أبي طلحة-، وانتَقَدَ الأول؛ لعدم ورود دليل بالنسـخ، فقال: «هي محكمة غير منسـوخة، لِما قد بَيَّنّا في غير موضـع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ، وله في غير النسخ وجه، إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر يقطع العذر، أو حجة عقل، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله - عز وجل -: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة﴾».

وإلى ذلك ذَهَب ابن كثير (٧/ ٣٩ - ٤٠) أيضًا.

وقال ابن عطية (٤/ ١٣٨): «أمر الله - عز وجل - في هذه الآية أن لا يولي المؤمنون أمام الكفار، وهذا الأمر مقيد بالشـريطة المنصـوصـة في مِثْلَي المؤمنين، فإذا لقيت فئة من المؤمنين فئة هي ضـعف المؤمنة من المشـركين فالفرض أن لا يفروا أمامهم،

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((اجتَنِبوا السَّبعَ المُوبقاتِ. قالوا: يا رسولَ اللهِ: وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ الَّتي حرَّم اللهُ إلَّا بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليَتيمِ، والتَّولِّي يومَ الزَّحفِ، وقذفُ المُحصَناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ)).(49)

فالفرار هناك كبيرة موبقة بظاهر القرآن، والحديث، وإجماع الأكثر من الأمة، والذي يراعي العدد حسب ما في كتاب الله – عز وجل –، وهذا قول جمهور الأمة.

وقالت فرقة –منهم ابن الماجشون في الواضحة–: يُراعى أيضًا الضعف والقوة والعدة، فيجوز على قولهم أن يَفِرّ مائة فارس إذا علموا أن عند المشركين من العدة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم، وأمام أقل أو أكثر بحسب ذلك، وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا أمام ما زاد على مائتين».

(49) رواه البخاري (2766) واللفظ له، ومسلم (89).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (17–19)

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19)

غريب الكلمات:

وَلِيُبْلِيَ أَى: وليُنْعِمَ، والبلاءُ: النِّعْمَةُ، وأيضًا: الاختبارُ، والمكروهُ والشِّدَّةُ، والبلاءُ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يُقال: أبلاه بالنِّعمةِ، وبلاه بالشِّدةِ، وقد يدخلُ أحدُهما على الآخرِ، فيقال: بلاه بالخيرِ، وأبلاه بالشَّرِّ، وأصلُ (بلي) الاختبارُ والامتحانُ.

مُوهِنُ: أي: مُضعِفُ، والوَهْنُ: ضعفٌ مِن حيثُ الخَلْق، أو الخُلُق، وأصلُ (وهن): يَدلُّ على ضَعْفٍ.

تَسْتَفْتِحُوا: أي: تَستَنصِروا، أو: تَسْتحكموا، أو: تسألوا الفَتحَ، وأصل (فتح): يَدلُّ على خِلافِ الإغلاقِ.

تفسير الآيات:

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17).

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ.

أي: ليس بحَولِكم وقُوَّتِكم– أيُّها المؤمنونَ– قتَلْتُم أعداءَكم المُشركينَ يومَ بَدرٍ، ولكِنَّ الذي قتلَهم على الحقيقةِ وأظفَرَكم بهم، ونَصَرَكم عليهم، هو اللهُ تعالى وَحدَه؛ فهو من تسبَّبَ بِقَتلِهم، حيث أمرَكم بقِتالِهم، وأعانكم على ذلك، ورَبَط على قُلوبِكم.[50]

---

(50) قال ابنُ تيميَّةَ: (فإنَّ قَتْلَهم حصلَ بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرتِهم؛ مِثل: إنزالِ الملائكةِ، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم). ((مجموع الفتاوى)) (18/8).

وقال ابن تيمية (٣/ ٢٥٦): «في قوله: ﴿فلم تقتلوهم﴾ الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أنه مبني على أن الفعل المتولد ليس من فعل الآدمي، بل من فعل الله، والقتل هو الإزهاق وذاك متولد، وهذا قد يقوله من ينفي التولد وهو ضعيف؛ لأنه نفى الرمي أيضًا، وهو فعل مباشر، ولأنه قال: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [البقرة: ٥٤].

وقال: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ [النساء: ٩٣]، فأثبت القتل.

ولأن القتل هو الفعل الصالح للإزهاق، ليس هو الزهوق، بخلاف الإماتة.

الثاني: أنه مبني على خلق الأفعال، وهذا قد يقوله كثير من الصوفية، وأظنه مأثورًا عن الجُنَيْد: سلب العبد الفعل نظرًا إلى الحقيقة؛ لأن الله هو خالق كل صانع وصنعته، وهذا ضعيف لوجهين: أحدهما: أنّا وإن قلنا بخلق الفعل، فالعبد لا يُسْلَبُه، بل يضاف الفعل إليه أيضًا، فلا يقال: ما آمنت ولا صليت ولا صمت ولا صدقت ولا علمت، فإن هذا مكابرة؛ إذ أقل أحواله الاتصاف، وهو ثابت.

وأيضًا فإن هذا لم يأت في شيء من الأفعال المأمور بها إلا في القتل والرمي ببدر، ولو كان هذا لعموم خلق الله أفعال العباد لم يختص ببدر.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [آل عمران: 123].

الثالث: أن الله سبحانه خرق العادة في ذلك، فصارت رءوس المشركين تطير قبل وصول السلاح إليها بالإشارة، وصارت الجريدة تصير سيفًا يقتل به.

وكذلك رمية رسول الله – ﷺ – أصابت مَن لم يكن في قدرته أن يصيبه، فكان ما وجد من القتل وإصابة الرمية خارجًا عن قدرتهم المعهودة؛ فسلبوه لانتفاء قدرتهم عليه.

وهذا أصح، وبه يصح الجمع بين النفي والإثبات ﴿وما رميت﴾ أي: ما أصبت ﴿إذ رميت﴾ إذ طرحت ﴿ولكن الله رمى﴾ أصاب.

وهكذا كل ما فعله الله من الأفعال الخارجة عن القدرة المعتادة بسبب ضعيف كإنباع الماء، وغيره من خوارق العادات، أو الأمور الخارجة عن قدرة الفاعل.

وهذا ظاهر، فلا حجة فيه لا على الجبر، ولا على نفي التولد».

وقال ابنُ القيم (١/ ٤٣٩): «اعتقد جماعةٌ أن المراد بالآية سلب فعل الرسول عنه، وإضافته إلى الرب تعالى، وجعلوا ذلك أصلًا في الجبر وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد، وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده، وهذا غلط منهم في فهم القرآن، فلو صح ذلك لوجب طرده في جميع الأعمال، فيقال: ما صليت إذ صليت، وما صمت إذ صمت، وما ضحيت إذ ضحيت، ولا فعلت كل فعل إذ فعلته، ولكن الله فعل ذلك، فإن طردوا ذلك لزمهم في جميع أفعال العباد طاعتهم ومعاصيهم؛ إذ لا فرق، فإن خصوه بالرسول وحده وأفعاله جميعها أو رميه وحده تناقضوا، فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

وبعد، فهذه الآية نزلت في شأن رميه المشركين يوم بدر بقبصة من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه مبدأ الرمي، وهو الحذف، ومن الله؟ نهايته، وهو الإيصال، فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته، ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾، ثم قال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، فأخْبَرَه أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم، ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلى أعينهم، ولم يكن ذلك من رسوله، ولكن وجه الإشارة بالآية أنه سبحانه أقام أسبابًا ظاهرة؛ كدفع المشركين، وتولى دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافًا إليه به، وهو خير الناصرين».وبنحوه قال ابنُ جرير (١١/ ٨٢ – ٨٣)، وكذا ابنُ عطية (٤/ ١٥٦ – ١٥٧).وذكر ابنُ عطية أن قوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ يحتمل احتمالات: الأول: أن يكون مرادًا به ما أيضًا ما في قوله: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾.

الثاني: أن يريد، وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك، ولكن الله رماه، وذكر أنه منصوص في المهدوي وغيره.

الثالث: أن يريد: وما أغنيت إذ رميت حصياتك، ولكن الله رمى، أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول في الدعاء: رمى الله لك، أي: أعانك وصنع لك.

وذكر أن أبا عبيدة حكاه في كتاب المجاز.

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [التوبة: 25–26].

وقال سبحانه: كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة:249].

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ.

أي: وما أوصلتَ الرمْيَ- حين رميتَ وجوهَ المُشركينَ بقبضةٍ مِن حَصباءَ، أو حفنةٍ مِن ترابٍ- فأنت حذَفْتَهم ورَمَيْتَهم بذلك فحَسْبُ، ولكن الذي تولَّى إيصالَها إليهم، هو اللهُ تعالى، بقُوَّته وقُدرتِه، لا أنت.[51]

سَببُ النُّزولِ:

(51) قال ابنُ تيميَّةَ: (وكذلك الرَّميُ، لم يكن في قُدرتِه أنَّ التُّرابَ يُصيبُ أعينَهم كلِّهم، ويُرعِبُ قُلوبَهم؛ فالرَّميُ الذي جعلَه اللهُ خارجًا عن قُدرةِ العَبدِ المعتادِ، هو الرَّميُ الذي نفاه اللهُ عنه).

((مجموع الفتاوى)) (18/8).

وقال أيضًا: (المنفيُّ هو وُصولُ الرَّميِ إلى الكُفَّارِ وتأثيرُه فيهم، والمُثبَتُ هو الحَذفُ الذي فعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلم).

((الرد على البكري)) (439/1).

عن حكيمِ بنِ حِزامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا كان يومُ بدرٍ أمَرَ رسولُ اللهِ - ﷺ -، فأخذَ كفًّا من الحَصباءِ فاستقبَلَنا به، فرمانا بها، وقال: شاهتِ الوجوهُ، فانهزَمْنا، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)).[52]

وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً.

أي: إنَّ اللهَ تعالى قتَلَ المُشركينَ، ورماهم بما رماهم به يومَ بَدرٍ؛ لأجْلِ هَزيمَتِهم، وأيضًا لِيُنعِمَ على المُؤمنينَ بِعَطاءٍ حَسَنٍ عظيمٍ، يَشكرونَه عليه، مِن النَّصرِ والظَّفَرِ بالغَنائِمِ في الدُّنيا، والأجرِ والثَّوابِ على جِهادِهم في الآخِرةِ.[53]

---

(52) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (15822)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (8906)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (203/3) (3128) واللفظ له.
حسَّن إسنادَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (87/6)، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (113): حسن لغيره.
(53) قال الخازن: (أجمع المُفَسِّرونَ على أنَّ البلاءَ هنا: بمعنى النِّعمةِ).
((تفسير الخازن)) (301/2).

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله سميعٌ لِدُعاءِ النبيِّ – ﷺ –، ومُناشَدَتِه ربَّه لإهلاكِ المُشركِينَ يومَ بَدرٍ؛ سَميعٌ لأقوالِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بذلك كُلِّه، وبِنيَّاتِهم وبما فيه صَلاحُهم، عليمٌ بمَن يستحِقُّ منهم النَّصرَ، ويعلَمُ غيرَ ذلك مِن الأشياءِ، فيُقَدِّرُ على العبادِ أقدارًا مُوافِقةً لِعلمِه وحِكمَتِه، ويَجزِيهم بحسَب نيَّاتِهم وأعمالِهم.

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (18).

أي: ذلك الفِعلُ؛ مِن قَتلِ المُشركِينَ ورَمْيِهم حتى انهزَمُوا، والإنعامِ عليكم– أيُّها المؤمنونَ– بالظَّفَرِ بهم، والانتصارِ عليهم، ذلك هو فِعْلُنا الذي فَعَلْنا، وثَمَّ بِشارةٌ أخرى مع ما حصَلَ مِن هذا النَّصرِ لكم، وهي أنَّ اللهَ تعالى سيُضعِفُ– فيما يُستقبَلُ– كُلَّ مَكرٍ وكَيدٍ يَكيدُ به الكُفَّارُ للإسلامِ وأهلِه، وسيجعَلُ مَكرَهم مُحِيقًا بهم.

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19).

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ.

أي: إنْ تَستَحكِموا اللهَ– أيُّها المُشركونَ– ليفصِلَ بينكم وبينَ أعدائِكم المُؤمنينَ، فتَستَقضوه على أقطَعِ الحِزبَينِ للرَّحِم، وأظلَمِ الفِئَتينِ منكم، وتستنصِروه؛ لِيُوقِعَ عذابَه على المُعتَدينَ الظَّالِمينَ منكم–

فقد جاءكم ما سألْتُم مِن حُكمِ اللهِ؛ بِنَصرِه المظلومَ على الظَّالِمِ، والمحِقَّ على المُبطِلِ، وذلك حين أوقَعَ بكم عِقابَه يومَ بَدرٍ.[54]

وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ.

أي: وإن تَنْتَهوا– يا كفَّارَ قُريشٍ– عن الشِّركِ والكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ لِرَسولِه، وقتالِ نَبِيّه – ﷺ – والمؤمنينَ به؛ فهو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ.

---

(54) قال ابن عطية (٤/ ١٥٩ – ١٦٠): «قال بعض المتأولين: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر، قال الله لهم: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾، وهو الحكم بينكم وبين الكافرين، فقد جاءكم وقد حكم الله لكم، ﴿وإن تنتهوا﴾ عمّا فعلتم من الكلام في أمر الغنائم، وما شجر بينكم فيها، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره؛ فهو خير لكم، ﴿وإن تعودوا﴾ لهذه الأفعال ﴿نعُد﴾ لتوبيخكم، ثم أعلمهم أن الفئة –وهي الجماعة– لا تغني –وإن كثرت– إلا بنصر الله تعالى ومعونته، ثم آنسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين.

وقال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبدًا في محافل قريش، ويقول: اللهم أقطعنا للرَّحِم، وآتانا بما لا يعرف؛ فأهلكه، واجعله المغلوب.

يريد محمدًا – ﷺ – وإياهم، ورُوِي أن قريشًا لما عزموا على الخروج إلى حماية العِير تعلقوا بأستار الكعبة واستفتحوا، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: اللهم انصر أحب الفئتين إليك، وأظهر خير الدينين عندك، اللهم أقطعنا للرحم فأَحِنْه الغداة.

ونحو هذا، فقال لهم الله: إن تطلبوا الفتح فقد جاءكم، أي: كما ترونه عليكم لا لكم.

قال القاضي أبو محمد: وفي هذا توبيخ، ثم قال لهم: ﴿وإن تنتهوا﴾ عن كفركم وغيكم ﴿فهو خير لكم﴾، ثم أخبرهم أنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الوقعة يوم بدر عليهم، ثم أعلمهم أن فئتهم لا تغني شيئًا وإن كانت كثيرة، ثم أعلمهم أنه مع المؤمنين.

وقالت فرقة من المتأولين: قوله: ﴿وإن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ هي مخاطبة للمؤمنين، وسائر الآية مخاطبة للمشركين، كأنه قال: وأنتم الكفار إن تنتهوا فهو خير لكم».

وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ.

أي: وإن تَعودُوا إلى ما كُنتُم فيه مِن الكُفرِ والضَّلالِ، وإلى حَربِ مُحمَّدٍ وقتالِه، وقِتالِ أتباعِه المؤمِنينَ؛ نَعُدْ عليكم بمِثلِ الواقعةِ التي أُوقِعَتْ بكم يومَ بَدرٍ، بالهزيمةِ والقَتلِ والأسْرِ.

وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ.

أي: وإنْ عُدتُم- أيُّها المُشركونَ- فحينَها لن يُغنيَ عنكم جَمعُكم مِن جُنودِكم وأعوانِكم أيَّ شيءٍ، ولن يَدفَعوا عنكم شيئًا البتَّةَ، ولو كَثُرَ عددُهم.

وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ.

القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:

في قوله تعالى: وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ قراءتان:

1- قراءة وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ على أنَّها تعليلٌ للجملةِ قبلَها.[55]

2- قراءة وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ على أنَّها جملةٌ استئنافيةٌ، منقطعةٌ عمَّا قبلَها.[56]

---

(55) قرأ بها المدنيانِ (نافعٌ وأبو جعفرٍ)، وابنُ عامرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (276/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (438/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 310).
(56) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (276/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (438/1)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 310).

وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: ولأنَّ اللهَ تعالى مع مَن آمَنَ به على مَن كَفَر به وأشرَكَ، فلن تُغنِيَ عنكم فِئَتُكم شيئًا ولو كَثُرت؛ فهو سبحانَه معهم بالعونِ، والنصرِ على أعدائِهم، كما أظْهَرهم يومَ بدرٍ على المشركينَ، ومَن كان اللهُ عزَّ وجلَّ معه فلا غالِبَ له، وإن كان ضعيفًا، قليلَ العَدَد والعُدَّةِ.(57)

(57) قال السَّـعدي: (وهذه المعيَّةُ التي أخبَرَ اللهُ أنَّه يُؤَيِّدُ بها المؤمنين، تكونُ بحَسَـبِ ما قاموا به من أعمالِ الإيمانِ، فإذا أُدِيلَ العَدُوُّ على المؤمنين في بعضِ الأوقاتِ، فليس ذلك إلَّا تفريطًا مِن المؤمنينَ، وعدَمَ قيامٍ بواجِبِ الإيمانِ ومُقتضـاه، وإلَّا فلو قاموا بما أمَرَ اللهُ به مِن كُلِّ وَجهٍ، لَمَا انهزَمَ لهم رايةٌ انهزامًا مُستقِرًّا، ولا أُدِيلَ عليهم عَدُوُّهم أبدًا).
((تفسير السعدي)) (ص: 317-318).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (20–23)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (20) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

غريب الكلمات:

وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ: أي: ولا تُعرِضوا عنه، ولا تتركوا طاعته، فالفِعل (ولي)، إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا، اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى معنى الوَلايةِ والقُرْبِ.

الصُّمُّ: أي: الذين يَصَمُّونَ عَن الحقِّ. والصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَف مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقبَلُه، وأصلُ (صمم) يدلُّ على تضامِّ الشَّيءِ.

الْبُكْمُ: أي: الَّذين لا يتكلَّمونَ بالحقِّ، جمع أَبْكَم، وهو الأخرسُ الذي لا يتكلَّمُ، وقيل: هو الذي يُولَد أخرس، والبَكَمُ: آفةٌ في اللِّسانِ، مانعةٌ مِن الكَلامِ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (20).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، امتَثِلوا أمْرَ اللهِ– تعالى– وأمْرَ رَسولِه، واجتَنِبوا نَهْيَهما.[58]

وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ.

أي: ولا تُعرِضوا عن طاعةِ رسولِه؛ بمُخالفةِ أمرِه، وارتكابِ نهيِه، وأنتم تَسْمَعونَ أمرَه إيَّاكم ونَهْيَه، وتعلمونَ ما دَعاكُم إليه.

---

(58) قال ابنُ عطية (٤/ ١٦٠ – ١٦١): «قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله﴾ الآية، الخطاب للمؤمنين المُصَدِّقين، جُدِّد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونُهُوا عن التولي عنه، وهذا قول الجمهور.

ويكون هذا متناصرًا مع قول من يقول: إن الخطاب بقوله: ﴿وإن تنتهوا﴾ هو للمؤمنين.

فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه.

وأما على قول مَن يقول: إن المخاطبة بـ ﴿وإن تنتهوا﴾ هي للكفار.

فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النَّفْل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله – ﷺ –، وتفاخرهم بقتل الكفار والنكاية فيهم.

وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط.

قال القاضي أبو محمد: وهذا وإن كان محتملًا على بُعْد فهو ضعيف جدًّا؛ لأجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء.

وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل.

وهذا أجنبي من الآية».

وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (21).

أي: ولا تكونُوا- أيُّها المُؤمنونَ- بإعراضِكم عَن طاعةِ اللَّهِ، وطاعةِ رَسولِه، كالمُشركِينَ الذينَ إذا سَمِعوا بآذانِهم كِتابَ اللهِ يُتلى عليهم، قالوا: قد سَمِعْنا، لكنَّهم في الحقيقةِ لا يَعتَبِرونَ بما يَسمَعونَ، ولا فيه يتفَكَّرونَ، ولا ينتَفِعونَ به ولا يتَّعِظونَ؛ فهُم بمنزلةِ مَن لم يَسمَعْها، فلا تكتَفُوا- مِثلَهم- بمجَرَّدِ الدَّعاوى الخاليةِ التي لا حقيقةَ لها.[59]

---

(59) ذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ بالَّذين قالوا: سَمِعنا وهم لا يَسْمعونَ: المُشركونَ.

وقيل: بل المرادُ بهم المُنافقون.

يُنظر: المصادر السابقة.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (22).

أي: إنَّ شرَّ ما دبَّ على الأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ عِندَ اللهِ تعالى، هؤلاءِ الكُفَّارُ[60] الذين لم ينتَفِعوا بالآياتِ والنُّذُرِ؛ فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحَقِّ، بُكمٌ عن التَّكلُّمِ به، لا يَعقِلونَ عَن اللهِ مَواعِظَه، ولا أمْرَه ونَهْيَه.[61]

وقد شَبَّهَهم اللهُ تعالى بالأنعامِ في قَولِه: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ [البقرة: 171].

---

(60) قيل: المراد بهم مُشرِكو قُريشٍ، وقيل: المُنافقون.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/102-103)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 435)، ((تفسير ابن كثير)) (4/34).

قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بهؤلاءِ المَذكورينَ نَفَرٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ مِن قُريشٍ.

رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ ومجاهِدٍ، واختاره ابنُ جرير، وقال محمَّدُ بن إسحاقَ: هم المُنافِقونَ.

قلتُ: ولا منافاةَ بينَ المُشركينَ والمُنافقينَ في هذا؛ لأنَّ كُلًّا منهم مسلوبُ الفَهمِ الصَّحيحِ، والقَصدِ إلى العَمَلِ الصَّالِحِ).

((تفسير ابن كثير)) (4/34).

(61) اخْتُلِفَ في مَن عُنِي بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ على أقوال: الأول: عُنِي بها نفرٌ من المشركين.

وهو قول ابن عباس من طريق مجاهد، ومجاهد.

الثاني: عُنِي بها المنافقون.

وهو قول ابن إسحاق.

ورجَّح ابنُ جرير (١١/ ١٠٢) القول الأوّل مستندًا إلى السياق، فقال: «لأنها في سياق الخبر عنهم».

قال ابنُ كثير: (فهؤلاءِ شَـرُّ البريَّةِ؛ لأنَّ كُلَّ دابَّةٍ ممَّا سِـواهم مُطيعةٌ للَّهِ -عَزَّ وجَلَّ- فيما خلَقَها له، وهؤلاءِ خُلِقوا للعبادةِ، فكَفَروا).

((تفسير ابن كثير)) (4/34).

ووجَّه ابنُ كثير (٧/ ٤٥) هذين القولين، فقال: «ولا منافاة بين المشـركين والمنافقين في هذا؛ لأن كلاً منهم مسـلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح».

بل جعَلَهم أضَلَّ مِن الأنعامِ، فقال سُبحانه: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 44].

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ (23).

وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ.

أي: ولو عَلِمَ اللهُ أنَّ في أولئك القَومِ خَيرًا؛ بقَصدِهم الحَقَّ، وصَلاحِيَّتِهم لِقَبولِ ما يُورِدُه عليهم من آياتِه– لأمكنَهم مِن فَهْمِها، ولكِنَّه قد عَلِمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، وأنَّهم ممَّن كُتِبَ لهم الشَّقاءُ، فلم يُفهِمْهم.

وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ.

أي: ولو فُرِضَ أنَّه أفهَمَهم آياتِه مع هذه الحالِ التي هُم عليها، لابتَعَدوا عنها وانصَرَفوا، وهم مُعرِضونَ عَن قَبولِها إعراضًا كُليًّا، لا يلتَفِتونَ إليها بوجهٍ مِن الوُجوهِ؛ قصدًا منهم، وعِنادًا للحَقِّ بعد ظُهورِه، والعِلمِ به.(62)

---

(62) قال ابنُ تيميَّةَ: (فقد فَسَدَت فِطرَتُهم فلم يَفهَموا، ولو فَهِموا لم يَعمَلوا، فنفى عنهم صِحَّةَ القُوةِ العِلميَّةِ، وصِحَّةَ القُوَّةِ العَمَليَّةِ).

((مجموع الفتاوى)) (26/7).

اخْتُلِفَ في من عُنِيَ بقوله تعالى: ﴿ولَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، وفي معناها على أقوال:

الأول: عُنِيَ بها المشركون.

وهو قول ابن جريج، وابن زيد.

الثاني: عُنِيَ بها المنافقون.

وهو قول ابن إسحاق.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ١٠٣) القول الأوّل مستندًا إلى السياق، لنَفْسِ العلة التي رجَّح بها الآية قبلها، وبأن ما ذُكِر في الآية ليس من صفة المنافقين.

وحكى ابنُ عطية (٤/ ١٦٢) عن ابن جرير تضعيفَه لمن قال بأن المعنيّ بهذه الآية المنافقون، ثم وافقه بقوله: «وكذلك هو ضعيف».

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (24–26)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ (25) وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ
فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

غريب الكلمات:

يَحُولُ: أي: يَحجُز، وأصلُ الحَوْلِ: تغيُّرُ الشَّيءِ، وانفصالُه عن غَيرِه.

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ: أي: يأخُذونَكم بِسُرعةٍ، ويَستَلِبونَكم، ويقتلُونَكم، والخَطفُ: أَخذُ الشَّيءِ بِسُرعةٍ واستِلابٍ.

فَآوَاكُمْ: أي: جعَلَ لكم مَأوًى تأوون إليه، وأصْلُه: يدلُّ على التَّجمُّعِ.

وَأَيَّدَكُمْ: أي: قَوَّاكم وأعانَكم، والأَيْدُ: القُوَّةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (أيد): يدلُّ على القوَّةِ والحِفظِ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ.

أي: يا أيُّها المؤْمِنونَ أجيبُوا اللهَ ورَسولَه بِطاعَتِهما، والمُبادرةِ إلى الانقيادِ لِأمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما.

إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ.

أي: إذا دعاكم الرَّسولُ إلى ما فيه صلاحٌ لكم، وحياةٌ طيبةٌ نافعةٌ لأبدانِكم وأرواحِكم؛ في الدُّنيا والآخرةِ، كالدَّعوةِ إلى الجِهادِ،[63] والدَّعوةِ إلى تدبُّرِ القُرآنِ والعَمَلِ به، وغَيرِ ذلك مِن كُلِّ ما دعا اللهُ ورَسولُه إليه ظاهِرًا وباطِنًا.[64]

---

(63) قال ابنُ القيِّم: (قَالَ الواحديُّ والأكثرونَ على أنَّ معنَى قولِه: لِمَا يُحْيِيكُمْ هو الجهادُ، وهو قولُ ابنِ إسحاقَ، واختيارُ أكثرِ أهلِ المعاني).

((الفوائد)) (ص: 88)، ويُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (452/2).

(64) نسَب ابنُ عطيَّةَ إلى مجاهدٍ والجُمهورِ القَولَ بأنَّ المرادَ بما يُحيي المؤمنينَ: الطَّاعةُ، وما تضمَّنَه القرآنُ مِن أوامِرَ ونَواهٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (514/2).

وذكر ابنُ القيِّم عباراتِ السَّلف في معنَى قولِه: لِمَا يُحْيِيكُمْ، ومنها: للحقِّ- القرآنِ- الإسلامِ- الحربِ والجهادِ، ثم قال: (وهذه [كُلُّها] عباراتٌ عن حقيقةٍ واحدةٍ، وهي القيامُ بما جاء به الرَّسولُ ظاهِرًا وباطِنًا).

وقال أيضًا: (والآيةُ تتناوَلُ هذا كُلَّه؛ فإنَّ الإيمانَ والإسلامَ والقُرآنَ والجهادَ، يُحيي القُلوبَ الحياةَ الطَّيبةَ، وكَمالُ الحياةِ في الجنَّة، والرَّسولُ داعٍ إلى الإيمانِ وإلى الجنَّةِ، فهو داعٍ إلى الحياةِ في الدُّنيا والآخرةِ).

((الفوائد)) (ص: 88-89).

كما قال تعالى: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: 122].

وقال عزَّ وجلَّ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وقال سبحانه: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 169 – 171].

وشبَّه سبحانه مَن لا يستجيبُ لرسولِه بأصحابِ القبورِ، فقال: إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [فاطر: 22].(65)

وقال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طه:124].(66)

---

(65) قال ابنُ القَيِّم: (هذا مِن أحسَنِ التَّشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لِقُلوبِهم، فقد ماتت قُلوبُهم وقُبِرَت في أبدانِهم).
((إغاثة اللهفان)) (22/1).

(66) أفادت الآثار اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ على أقوال: الأول: إذا دعاكم للإيمان.
وهو قول السدي.
الثاني: إذا دعاكم للحق.
وهو قول مجاهد.
الثالث: إذا دعاكم إلى ما في القرآن.

وهو قول قتادة.

الرابع: إذا دعاكم إلى الحرب وجهاد العدوّ.

وهو قول ابن إسحاق.

ورجَّح ابنُ جرير (١١/ ١٠٥، ١٠٦) مستندًا إلى السنة القول الثاني، وجعل القول الثالث والرابع داخلَيْن في معنى القول الثاني، فقال: «معناه: استجيبوا لله وللرسول بالطاعة إذا دعاكم الرسول لما يحييكم من الحق.

وذلك أن ذلك إذا كان معناه، كان داخلًا فيه الأمر بإجابتهم لقتال العدوّ والجهاد، والإجابة إذا دعاكم إلى حكم القرآن، وفي الإجابة إلى كل ذلك حياة المجيب.

أما في الدنيا، فيقال: الذكر الجميل، وذلك له فيه حياة، وأما في الآخرة، فحياة الأبَد في الجِنان والخلود فيها».

ووجَّه ابنُ عطية (٤/ ١٦٢) الأقوال الثلاثة الأولى، فقال: «وهذا إحياءٌ مستعارٌ؛ لأنه من موت الكفر والجهل».

ووجَّه القول الرابع قائلًا: «وهو يُحْيي بالعزة والغلبة والظفر، فَسَمّى ذلك حياة، كما تقول: حَيِيَتْ حال فلان إذا ارتفعت، ويُحيي أيضًا كما يُحيي الإسلام والطاعة وغير ذلك بأنه يؤدي إلى الحياة الدائمة في الآخرة».

ووجَّه ابنُ القيم (١/ ٤٤١) جميع الأقوال، فقال: «وهذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة: وهي القيام بما جاء به الرسول -ﷺ- ظاهرًا وباطنًا».

وعلَّق على القول الرابع قائلًا: «الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة.

أما في الدنيا: فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد.

وأما في البرزخ: فقد قال تعالى: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أمْواتًا بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما في الآخرة: فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم».

وانتقد ابنُ جرير (١١/ ١٠٦) مستندًا إلى مخالفة ظاهر لفظ الآية القولَ الأول، قائلًا: «وأما قول من قال: معناه: الإسلام، فقولٌ لا معنى له؛ لأن الله قد وصفهم بالإيمان بقوله: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ﴾، فلا وجه لأن يُقال للمؤمن: استَجِبْ لله وللرسول إذا دعاك إلى الإسلام والإيمان».

ثم ذكر بسنده روايتين لحديث أبي هريرة حين دعا النبي -ﷺ- أُبَيَّ بن كعب وهو يصلي فلم يُجِبْه، فلما انتهى من صلاته اعتذر إلى النبي -ﷺ- بأنه كان يصلي، فقال له النبي -ﷺ-: «أفلم تجد فيما أوحي إليّ أن ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾؟».

قال: بلى، يا رسول الله، لا أعود.

ثم ذكر (١١/ ١٠٧) بأن في هذا الحديث: «ما يُبِينُ عن أن المعنيَّ بالآية هم الذين يدعوهم رسول الله -ﷺ- إلى ما فيه حياتهم بإجابتهم إليه من الحق بعد إسلامهم؛ لأن أُبَيًّا لا شك أنه كان مسلمًا في الوقت الذي قال له النبي -ﷺ- ما ذكرنا في هذين الخبرين». ووافقه ابنُ عطية (٤/ ١٦٢).

وزاد ابنُ عطية قولًا عن النقاش أنه قال: «المراد: إذا دعاكم للشهادة».

ثم علّق بقوله: «فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة».

وعن أبي سعيدِ بنِ المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((كنتُ أُصلّي في المسجدِ، فدعاني رسولُ اللهِ – ﷺ – فلمْ أُجبْهُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إني كنتُ أُصلّي، فقالَ: ألم يقلِ اللهُ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ. ثم قال لي: لأُعلِّمنَّك سورةً هي أعظمُ السوَرِ في القرآنِ، قبل أن تخرجَ من المسجدِ. ثمَّ أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرجَ، قلتُ له: ألم تقلْ: لأُعلِّمنَّك سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآنِ. قال: الحمدُ للهِ ربِّ العالمِينَ: هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُهُ)).(67)

وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ

أي: واعلَموا– أيُّها المؤْمنونَ– أنَّ اللهَ تعالى يحجُزُ بين العَبدِ وقَلبِه إذا شاء، فلا يستطيعُ المَرءُ أن يُدرِكَ ويعِيَ به شيئًا مِن حقٍّ أو باطلٍ، إلّا بإذنِ اللهِ تعالى، فقُلوبُكم بيَدِ خالِقِكم سُبحانه، يُصرِّفُها ويُقَلِّبُها كيف يشاءُ؛ يُصرِّفُها مِن الهُدى إلى الضَّلالةِ، ومِن الضَّلالةِ إلى الهُدى، فإيَّاكم أن تردُّوا أمْرَ اللهِ حين يأتِيكم، أو تتثاقَلُوا وتتباطَؤُوا عن الاستجابةِ له، فلا تأمَنُوا حينَها أن يُحالَ بينَكم وبينَ قُلوبِكم، فلا تَقْدِروا على الاستجابةِ بعد ذلك إذا أردْتُموها.(68)

---

(67) رواه البخاري (4474).

(68) وهذا المعنى المذكورُ هو في الجُملةِ اختيارُ ابنِ جريرٍ، والواحديّ، والسعديّ، والشنقيطيّ.

ونسبَه ابنُ القَيِّم إلى جمهورِ المُفسِّرين.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن رُوي عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: السُّديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (111/11).

وثَمَّ معنًى آخرُ ذكره الزَّجاج، وذكره الواحدي عن قتادة، وذكره ابنُ القَيِّم، ورآه أنسبَ للسياقِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى قريبٌ مِن قَلبِ العَبدِ، وأقرَبُ إليه مِن قَلْبِه، لا يخفَى عليه شيءٌ أظهَرَه أو أسَرَّه، كما قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [ق: 16].

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (2/409)، ((البسيط)) للواحدي (10/92)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: 90).

أفادت الآثار اختلاف المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾ على أقوال: الأول: يحول بين الكافر والإيمان، وبين المؤمن والكفر.

وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وغيرهم.

الثاني: يحول بين المرء وعقله فلا يدري ما يعمل.

وهو قول مجاهد.

الثالث: يحول بين المرء وقلبه أن يَقْدِر على إيمانٍ أو كفرٍ إلا بإذنه.

وهو قول السدي.

الرابع: معناه أنه قريب من قلبه لا يخفى عليه شيء أظهره أو أسرَّه.

وهو قول قتادة.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ١١٢) العموم، فذكر «أن الحول بين الشيء والشيء إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز -جلَّ ثناؤه- بين عبدٍ وقلبه في شيءٍ أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع اللهُ قلبَه إدراكَه سبيل، وإذا كان ذلك معناه دخل في ذلك قول من قال: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان، وقول من قال: يحول بينه وبيْن عقله، وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه».

ثم ختم كلامه بقوله: «غير أنه ينبغي أن يقال: إن الله عمَّ بقوله: ﴿واعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِهِ﴾ الخبر أنه يحول بيْن العبد وقلبه، ولم يَخْصُص من المعاني التي ذكرنا شيئًا دون شيء، والكلام مُحْتَمِلٌ كلَّ هذه المعاني، فالخبر على العموم حتى يَخُصَّه ما يجب التسليم له».

وذهب ابن القيم (١/ ٤٤٣) إلى القول الرابع بدلالة السياق، فقال بعد أن ذكر قول قتادة: «وكأن هذا أنسب بالسياق؛ لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه؟».

ثم ذكر وجه المناسبة بيْن القول الأول ومعنى الآية، فقال: «وعلى القول الأول فوَجْه المناسبة: إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة، وأبطأتم عنها، فلا تأْمَنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، وعقوبة لكم على تَرْكها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ﴿ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُمْ وأبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمّا زاغُوا أزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١]، ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب، وان استجاب بالجوارح».

كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وقال سبحانه: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: 5].

وقال تعالى: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ [الأعراف: 101].

وقد أثنَى اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه الراسخينَ في العلمِ بأنَّهم يقولونَ: آمَنَّا بِهِ [آل عمران:7] إلى أن قال عنهم: رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً [آل عمران: 8].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ - ﷺ - يُكثِرُ أن يقولَ: يا مقلِّبَ القُلوبِ! ثبِّتْ قَلبي علَى دينِك، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ! آمنَّا بك وبما جئتَ بهِ، فهل تخافُ علَينا؟! قال: نعَم؛ إنَّ القُلوبَ بين أُصبعَينِ من أصابعِ اللهِ، يقلِّبُها كيف يشاءُ)).(69)

وانتقد ابنُ عطية (٤/ ١٦٤) القول الأول قائلًا: «وقال المفســـرون في ذلك أقوالًا هي أجنبية من ألفاظ الآية، حكاها الطبري، منها: أن الله يحول بيْن المؤمن والكافر، وبيْن الكفر والإيمان، ونحو هذا».

وزاد ابنُ عطية (٤/ ١٦٣ بتصـرف) في معنى الآية احتمالين آخرين، الأول: أن يكون المعنى حضّ على المبادرة والاسـتعجال في الطاعة التي دعاهم للاستجابة لها، فقال: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه بالموت والقبض، أي: فبادروا بالطاعات».

وعلق عليه قائلًا: «ويلتئم مع هذا التأويل قوله: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾ أي فبادروا الطاعات وتزودوها ليوم الحشر».

الثاني: «أن يكون المعنى ترجية لهم بأن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأة وقوة وبضـــد ذلك الكفار، فإن الله هو مقلب القلوب كما كان قســـم النبي - ﷺ -، قال بعض الناس: ومنه لا حول ولا قوة إلا بالله، أي: لا حول على معصية ولا قوة على طاعة إلا بالله».

(69) أخرجه الترمذي (2140)، وابن ماجة (3834)، وأحمد (12107)، والبزار (7508).

وعن النوَّاسِ بنِ سمعانَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن قلبٍ إلَّا وهو بينَ أُصبعينِ مِن أصابعِ ربِّ العالمينَ، إن شاء أن يُقيمَه أقامه، وإن شاء أن يُزيغَه أزاغه. وكان يقولُ: يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّتْ قلوبَنا على دينِك)).[70]

حسنه الترمذي، وقال الذهبي في ((الميزان)) (343/2): صحيح غريب.

وقال المناوي في ((تخريج أحاديث المصابيح)) (112/1): رجاله رجال مسلم في الصحيح.

وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (2140).

(70) أخرجه ابن ماجه (199)، وأحمد (17630) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7738).

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (943)، وقال ابنُ منده في ((الرد على الجهمية)) (87): ثابتٌ، رواه الأئمةُ المشاهيرُ ممن لا يمكنُ الطعنُ على واحدٍ منهم، وجوَّد إسنادَه بنحوه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (56/3)، وصححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (166).

وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

أي: واعلَموا- أيُّها المؤمنونَ- أيضًا مع العِلمِ بأنَّ اللهَ يَحولُ بينَ المرءِ وقَلْبِه، أنَّ إلى اللهِ تعالى مَصيرَكم ومَرجِعَكم يومَ القيامةِ، فتُجمَعون إليه وَحْدَه، فيُوفِّيكم جزاءَ أعمالِكم؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فاحذروا مِن تَرْكِ الاستجابةِ لِرَسولِه إذا دعاكم لِما يُحيِيكم.

كما قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [البقرة: 203].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [الأنعام: 72].

وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25).

وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً.

أي: احْذَروا- أيُّها المؤمنونَ- مِن بلاءٍ يأتيكم مِن اللهِ، لا يختَصُّ وقوعُه بمَن ظَلَم نَفسَه بارتكابِ المعاصي، بل يعُمُّ المسيءَ وغيرَه، ممَّن يرى المُنكر يُرتكَبُ، ولا ينهَى عنه، أو يُغيِّرُه مع قدرتِه على ذلك، فحينَ لا تُدفَعُ ولا تُرفَعُ تلك المعاصي الظَّاهرةُ بالنَّهيِ عنها، وقَمْعِ أهلِها، وعدَمِ تمكينِهم منها، حينَها يعُمُّ اللهُ تعالى الجميعَ بعقابٍ يَحُلُّ بهم.

كما قال تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [المائدة: 78- 79].

وعن زينبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((استيقَظَ النبيُّ - ﷺ - مِن النَّومِ مُحمَرًّا وجهُه، يقول: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويلٌ للعَرَبِ من شرٍّ قد اقترَب، فُتِحَ اليومَ من ردْمِ[71] يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه. وعقَدَ سُفيانُ تسعينَ أو مِئةً،[72] قيل: أنَهلِكُ وفينا الصَّالِحونَ؟ قال: نعم، إذا كثُرَ الخبَثُ))[73].[74]

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((مَثَلُ القائمِ على حُدودِ اللَّهِ والواقِعِ فيها، كمَثَلِ قومٍ استَهَموا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفَلَها، فكانَ الَّذينَ في أسفَلِها إذا استَقَوا منَ الماءِ مرُّوا على مَن فوقَهم، فقالوا: لو أنَّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرقًا ولم نُؤذِ مَن فَوْقَنا، فإن يترُكوهم وما أرادُوا هلَكوا جميعًا، وإن أخَذُوا على أيديهم نَجَوْا، ونَجَوْا جميعًا)).[75]

وعن قَيسِ بنِ أبي حازمٍ، قال: ((قال أبو بكرٍ، بعد أن حَمِدَ اللهَ، وأثنَى عليه: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تَقرَؤونَ هذه الآيةَ، وتَضعونَها على غيرِ مَوضِعِها: عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، وإنَّا

---

(71) الرَّدْمُ: السَّدُّ، وهو سدٌّ بناه ذو القَرنينِ في وجهِ يأجوجَ ومأجوجَ؛ كي لا يخرجوا مِن مواطِنِهم في الأرضِ.
يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (5/322).

(72) عَقدُ التِّسعينَ: وهو أنْ تَجْعَلَ رأسَ الأصْبعِ السَّبَّابَةِ في أصلِ الإبْهامِ، وتَضمُّها حتَّى لا يَبِينَ بينَهما إلَّا خَلَلٌ يَسِيرٌ، وعقدُ المئةِ مِثلُ عَقدِ التِّسعينَ، لكن بالخِنصَرِ اليُسرى.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (2/216)، ((فتح الباري)) لابن حجر (13/108).

(73) الخبَثُ: المرادُ به الفُسوقُ والفجورُ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (13/109).

(74) رواه البخاري (7059)، واللفظ له، ومسلم (2880).

(75) رواه البخاري (2493).

سَمِعْنا النَّبيَّ – ﷺ – يقولُ: إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالِمَ فلَم يأخُذوا على يدَيْه؛ أوشَكَ أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ)).[76]

وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: واعلَمُوا– أيُّها المُؤمنونَ– أنَّ رَبَّكم شديدٌ عقابُه لِمَن تعرَّض لمساخطِه، وجانَب رِضاه، بِتَركِه امتثالَ أوامِرِه، واجتنابَ نواهِيه.

وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26).

وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ.

أي: واذكُرُوا– أيُّها المؤمنونَ– حينَ كان عَدَدُكم قليلًا جدًّا، أثناءَ مُقامِكم بأرضِ مَكَّةَ، يراكم أعداؤُكم ضُعَفاءَ، ويَقْهَرونَكم، ويُؤذُونكم بسبَبِ إيمانِكم.

---

(76) أخرجه أبو داود (4338) واللفظ له، والترمذي (2168) (3057)، وأحمد (1/208).
قال الترمذي (حسن صحيح)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (3/208)، وابنُ العربيِّ في ((الناسخ والمنسوخ)) (2/205)، والألباني في ((صحيح أبي داود)) (4338)، وصحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (412)، وأحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (1/36).

تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ.

أي: تخافونَ أن يستلِبَكم الكُفَّارُ،[77] فيأخُذوكم بسرعةٍ، واحدًا تِلوَ الآخَرِ، فيقتلوكم؛ إذ لم تكُنْ لديكم مَنعةٌ بكثرةٍ ولا بِقُوَّةٍ.

فَآوَاكُمْ.

أي: فجعَلَ لكم بلدًا تأْوُونَ إليه مِنهم، وهي المدينةُ: دارُ الهِجرة.

وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ.

أي: وقوَّاكم وأعانَكم بأهلِ المَدينةِ؛ الأنصارِ، فتَمَكَّنتُم مِن الانتصارِ على أعدائِكم بِبَدرٍ وغَيرِها.

قال تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [آل عمران: 123].

وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ.

أي: وأطعَمَكم الغنائِمَ حلالًا طيِّبًا، كما رزَقَكم غنائِمَ يومَ بَدرٍ.

كما قال تعالى: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا [الأنفال: 69].

(77) اختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ بالنَّاسِ هنا: مُشـركو قريشٍ، وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المُرادَ بهم مَن يُعاديهم مِن النَّاسِ مِن سائِرِ بلادِ اللهِ؛ مِن مُشركٍ ومَجوسيٍّ وروميٍّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/119)، ((تفسير ابن كثير)) (4/40).

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: تذكَّروا هذا الإنعامَ والإحسانَ التَّامَّ؛ لأجْلِ أن تَشكُروا المُنعِمَ سُبحانَه على ذلك، فتُطيعوه وتَعبُدوه وَحدَه؛ حيث كُنتُم قليلينَ فكَثَّركم، وأذلَّةً مُستضعَفينَ خائِفينَ، فأعَزَّكم وقوَّاكم ونَصَركم، وفُقراءَ عالةً فأغناكم ورزَقَكم.(78)

قال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [البقرة: 172].

وقال تعالى: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [النحل: 114].

وقال سبحانه: لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ [سبأ: 15].

---

(78) قال الشنقيطي: (شُكْرُ العَبدِ لِرَبِّه.
قال بعضُ العُلَماءِ: ضابِطُه المُنطَبِقُ على جُزئيَّاتِه: هو أن يَستعمِلَ جميعَ نِعَمِ الله فيما يُرضِي اللهَ).
((العذب النمير)) (564/4).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (27–29)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

غريب الكلمات:

فُرْقَانًا: أي: فَصلًا وفَرْقًا بَينَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُه مِن الفَرْقِ، وهو الانفصالُ، والتَّمييزُ بين شَيئينِ.

وَيُكَفِّرْ: أي: يَمحُ ويَستُرْ، وأصلُ (كفر) يدلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (27).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ.

أي: يا أيُّها المُؤمنون لا تَنْقُصُوا[79] ما ينبغي عليكم حِفظُه وأداؤه تامًّا مِن حُقوقِ اللهِ تعالى عليكم، وذلك بِتَركِ فرائِضِه، وانتهاكِ حُرُماتِه، ولا تنقُصُوا حقوقَ رَسولِه بِتَركِ طاعَتِه واتِّباعِه،[80] ولكِنْ أطيعُوا اللهَ ورسولَه بامتثالِ الأمرِ، واجتنابِ النهيِ، دونَ تقصيرٍ في ذلك.

---

(79) قال ابن عاشور: (الخونُ والخيانةُ: إبطالُ ونقضُ ما وقع عليه تعاقُدٌ مِن دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، قال تعالى: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ [الأنفال: 58 والخيانةُ ضِدُّ الوفاءِ.

قال الزمخشري: «وأصلُ معنى الخونِ: النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوَفاءِ التَّمامُ، ثم استُعمِلَ الخَونُ في ضِدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنتَ الرَّجُلَ في شيءٍ فقد أدخَلْتَ عليه النُّقصانَ فيه» أي: واستُعمِلَ الوَفاءُ في الإتمامِ بالعَهدِ؛ لأنَّ مَن أنجَزَ بما عاهد عليه فقد أتمَّ عَهدَه، فلذلك يقال: أوفى بما عاهَدَ عليه، فالإيمانُ والطَّاعة لله ورَسولِه عَهدٌ بين المؤمنِ وبين اللهِ ورَسولِه، فكما حُذِّروا من المعصيةِ العَلَنيَّةِ، حُذِّرُوا من المعصيةِ الخَفيَّة، وتشمَلُ الخيانةُ كُلَّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي داخلةٌ في (لا تخونوا)؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّهيِ يَعُمُّ، فكلُّ مَعصيةٍ خَفيَّةٍ، فهي مرادٌ من هذا النَّهيِ).

((تفسير ابن عاشور)) (9/322).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/126).

(80) قال ابنُ عاشور: (روى جُمهورُ المُفَسِّرين وأهلُ السِّيَرِ...

أنَّها نزلَت في أبي لُبابةَ بنِ عبدِ المُنذِرِ الأنصاريِّ، لَمَّا حاصرَ المُسلمونَ بني قُرَيظةَ...

وهذا الخَبَرُ لم يثبُتْ في الصَّحيحِ، ولكنَّه اشتَهَر بين أهلِ السِّيَرِ والمُفَسِّرينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (9/321).

قال ابنُ جريرٍ: (أولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ نهى المؤمنينَ عَن خِيانَتِه وخيانةِ رَسولِه وخيانةِ أمانتِه، وجائزٌ أن تكونَ نَزَلَت في أبي لُبابة، وجائزٌ أن تكونَ نزَلَت في غَيرِه، ولا خبَرَ عندنا بأيِّ ذلك كان، يجِبُ التَّسليمُ له بصِحَّتِه).

((تفسير ابن جرير)) (11/122-123).

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَعثَني رسولُ اللهِ – ﷺ – وأبا مَرثَدٍ الغنويَّ والزُّبيرَ بنَ العوَّامِ، وكلُّنا فارِسٌ، قال: انطلِقوا حتى تأتُوا روضةَ خاخٍ؛ فإنَّ بها امرأةً مِن المُشرِكينَ، معها كتابٌ مِن حاطبِ ابنِ أبي بلتعةَ إلى المُشرِكينَ، فأدرَكْناها تسيرُ على بَعيرٍ لها، حيثُ قال رسولُ اللهِ – ﷺ – ، فقُلْنا: الكتابَ، فقالتْ: ما مَعَنا كتابٌ، فأنَخْناها، فالتَمَسْنا فلم نَرَ كِتابًا، فقُلْنا: ما كَذَبَ رسولُ اللهِ – ﷺ –، لتُخرِجنَّ الكتابَ أو لنُجَرِّدنَّكِ، فلما رأتِ الجِدَّ أهوتْ إلى حُجْزَتِها،[81] وهي مُحتَجِزةٌ بكِساءٍ، فأخرَجَتْه، فانطلَقْنا بها إلى رَسولِ اللهِ – ﷺ –، فقال عمرُ: يا رسولَ اللهِ، قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلْأَضرِبْ عُنقَه. فقال النبيُّ – ﷺ –: ما حمَلَك على ما صنعْتَ؟ قال حاطِبٌ: واللهِ ما بي ألَّا أكونَ مُؤمِنًا باللهِ ورسولِه – ﷺ –، أردتُ أن يكونَ لي عند القومِ يدٌ، يدفَعُ اللهُ بها عن أهلي ومالي، وليسَ أحدٌ مِن أصحابِك إلَّا له هناك مِن عَشيرتِه مَن يَدفَعُ اللهُ به عن أهلِه ومالِه. فقال النبيُّ – ﷺ –: صدَقَ، ولا تقولوا له إلَّا خَيرًا. فقال عمرُ: إنَّه قد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنينَ، فدعْني فلْأضرِبْ عُنقَه. فقال: أليسَ مِن أهلِ بَدْرٍ؟ فقال: لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلى أهلِ بدرٍ، فقال: اعمَلُوا ما شئتُم؛ فقد وجَبَتْ لكم الجنَّةُ، أو فقد غَفَرْتُ لكم. فدمَعَت عينَا عُمرَ، وقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ)).[82]

وقال ابنُ كثيرٍ: (الصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، وإن صحَّ أنَّها وردت على سببٍ خاصٍّ؛ فالأخذُ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّببِ عند الجماهيرِ مِن العُلَماءِ).

((تفسير ابن كثير)) (41/4).

(81) حُجْزَتِها: أي: مَعْقِد الإزار.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (256/6).

(82) رواه البخاري (3983)، ومسلم (2494).

وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ.

أي: ولا تخونوا ما اؤتُمِنتم عليه.(83)

قال تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا [الأحزاب: 72].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا [النساء: 58].

وقال سبحانه: وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ [المؤمنون: 8].

وقال تعالى: فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ [البقرة: 283].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: ((حدَّثَنا رسولُ اللهِ – ﷺ – حديثَينِ، رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا: أنَّ الأمانةَ نزَلَتْ في جَذرِ(84) قلوبِ الرجالِ، ثم علِموا منَ القرآنِ، ثم علِموا منَ السُّنَّةِ. وحدَّثَنا عن رفعِها قال: ينامُ الرجلُ النومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِه، فيظَلُّ أثرُها مثلَ أثرِ الوَكتِ،(85) ثم

---

(83) قال القرطبي: (الأماناتُ: الأعمالُ التي ائتَمَنَ اللهُ عليها العبادَ، وسُمِّيَت أمانةً؛ لأنَّها يُؤمَنُ معها مِن مَنْعِ الحَقِّ، مأخوذٌ مِن الأمْنِ).

((تفسير القرطبي)) (7/395).

(84) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيء.

يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (1/448).

(85) الوَكت: الأثرُ اليسيرُ، وقيل: هو سوادٌ يسيرٌ، وقيل: هو لونٌ يحدثُ مخالفٌ للونِ الذي كان قبلَه.

يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (2/285)، ((شرح النووي على مسلم)) (2/168).

ينامُ النومةَ فتُقبَضُ فيَبقى فيها أثرُها مثلَ أثرِ المَجْلِ،[86] كجمرٍ دحرَجتَه على رِجلِك فنفِط،[87] فترَاه مُنتَبِرًا،[88] وليس فيه شيءٌ، ويُصبِحُ الناسُ يتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ، فيُقالُ: إنَّ في بني فلانٍ رجلًا أمينًا، ويُقالُ للرجلِ: ما أعقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجلَدَه! وما في قلبِه مِثقالُ حبةِ خَردَلٍ من إيمانٍ، ولقد أتى عليَّ زمانٌ، ولا أُبالي أيُّكم بايَعتُ، لئن كان مسلمًا ردَّه عليَّ الإسلامُ، وإن كان نصرانيًّا ردَّه عليَّ ساعيه، وأما اليومَ: فما كنتُ أُبايِعُ إلا فلانًا وفلانًا)).[89]

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله – ﷺ – قال: ((مِن علاماتِ المنافقِ ثلاثةٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَف، وإذا ائتُمنَ خانَ)).[90]

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ.

---

(86) المَجْلُ: هو التنَفُّطُ الذي يصيرُ في اليَدِ مِن العمَلِ بفأسٍ أو نحوِها، ويصيرُ كالقبَّة فيه ماءٌ قليلٌ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (169/2).

(87) نَفِطَ، أي: ظهَرَ برِجْلِه نفطةٌ، أي: بثرةٌ مُجوَّفةٌ.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (348/5).

(88) مُنتَبِرًا: أي: مُرتَفِعًا.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (169/2).

(89) رواه البخاري (7086) واللفظ له، ومسلم (143).

(90) رواه البخاري (33)، ومسلم (59) واللفظ له.

أي: والحالُ أنّكم تعلمونَ عِلمًا لا لَبْسَ فيه أنَّها أماناتٌ يجِبُ الوفاءُ بها، وعَدَمُ تَعمُّدِ التَّفريطِ فيها، وتعلمونَ مَفاسِدَ خِيانَتِها، وقُبْحَ ذلك.(91)

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28).

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ.

أي: واعلَموا– أيُّها المُؤمِنونَ– أنَّ أموالَكم التي رزَقَكم اللهُ تعالى إيَّاها، وأولادَكم الذين وهَبَهم اللهُ لكم– اختبارٌ يَبتليكم اللهُ به؛ لِينظُرَ هل تؤدُّونَ حَقَّ اللهِ عليكم فيها: بامتثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه فيها، وهل تَشْكُرونَه عليها، أم تَحمِلُكم محبَّةُ ذلك على تقديمِ هَوى أنفُسِكم على أداءِ ما ائتَمَنكم عليه، وتَشتغِلون بها عنه سبحانَه.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [التغابن: 14–16].

وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

---

(91) رجَّح ابن كثير (٧/ ٥٦) مستندًا إلى دلالة العموم بأن «الآية عامة، وإن صَحَّ أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء.
والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية».

أي: واعلَموا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عِندَه ثوابٌ عظيمٌ، وهو خيرٌ لكم من الأموالِ والأولادِ؛ فآثِرُوا فَضْلَه العظيمَ الباقيَ، على لذَّةٍ صَغيرةٍ فانيةٍ مُضمحِلَّةٍ.

يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29).

يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إن تتَّقوا اللهَ بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيه، وترْكِ خيانَتِه، وخيانةِ رَسولِه، وخيانةِ أماناتِكم؛ يجعَلْ لكم علمًا، تُفرِّقُون به بينَ الحقّ والباطلِ، ومَخرجًا لكم مِن كُروبِ الدُّنيا ونجاةً، ونصرًا وتأييدًا.(92)

قال الله سبحانه: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا [الطلاق: 2].

وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ.

أي: ويمحُ عَنكم ما تقدَّمَ مِن ذُنوبِكم.

---

(92) قال الشنقيطيُّ في تفسيرِ قوله: فُرْقَانًا: (معناه: يجعلْ لكم مخرجًا، وقال بعضُ العلماءِ: فُرْقَانًا: نصرًا وتأييدًا؛ وقال بعضُ العلماءِ: فرقانًا: فَتْحًا.
وقال بعضُ العلماءِ: يجعلِ الله لكم بسببِ تقوَى الله فُرْقَانًا، أي: علمًا تُفَرِّقُون به بينَ الحقّ والباطلِ، والحسنِ والقبيحِ. والأقوالُ متقاربةٌ).
((العذب النمير)) (568/4) بتصرف، ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (128/11).

وَيَغْفِرْ لَكُمْ.

أي: ويستُرْ ذُنوبَكم عن النَّاسِ، ويتجاوَزْ عن مؤاخَذتِكم بها.

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

أي: واللهُ- الذي يمنَحُكم كلَّ هذه الهِباتِ والمكرُماتِ- صاحِبُ الأجرِ العَظيمِ، والثَّوابِ الجزيلِ لِمَن اتَّقاه، وله- وحدَه- الفَضلُ العظيمُ عليكم، وعلى غَيرِكم مِن خَلْقِه، فاكتفوا بطلبِه منه دونَ غيرِه.

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (30–35)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمَاكِرِينَ (30) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ (31) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ
ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

غريب الكلمات:

يَمْكُرُ: المَكْرُ: صرفُ الغيرِ عمَّا يقصدُه بحيلةٍ، وأصلُ المكرُ: الاحتيالُ والخداعُ.

لِيُثْبِتُوكَ: أي: لِيَحبِسوك ويَسجِنوك. وأصلُ (ثبت) يدلُّ على دوامِ الشَّيءِ.

أَسَاطِيرُ: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم.

أَوْلِيَاءَهُ: الأولياءُ جمعُ وليٍّ، وأصلُ (ولي): يدلُّ على القُرْب، سواء مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةِ، أو الدِّينِ، أو الصَّداقةِ، أو النُّصرةِ، أو الاعتقادِ، وكلُّ مَن وَلِي أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه.

مُكَاءً: أي: صَفيرًا، وأصلُ (مكا) يدلُّ على شَيءٍ مِن الأصواتِ.

وَتَصْدِيَةً: أي: تصفيقًا، وهو أن يضْرِبَ بإحدَى يَدَيْه على الأُخرَى، فيخرجَ بينهمَا صَوتٌ، وقيل للتَّصفيقِ: تَصدِيةٌ؛ لأنَّ اليدَينِ تَتصافقانِ، فيُقابِلُ صَفْقُ هذه صَفْقَ الأُخرى، وصَدُّ هذه صَدَّ الأُخرَى، وهما وَجْهاها.

تفسير الآيات:

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30).

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ.

أي: واذكُرْ- يا مُحَمَّدُ- نِعمَتي عليك حين كان كفَّارُ قُريشٍ يَكيدونَ لك، ويتآمَرونَ عليك في الخفاءِ؛ ليُقيِّدوك ويَسجِنوك، أو يَقتلُوك، أو يُخرِجوك مِن مكَّةَ.[93]

قال تعالى: أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ [التوبة: 13].

وقال سبحانه: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ [محمد: 13].

---

(93) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: هذه الآيةُ مِن سورةِ الأنفالِ مكيَّةٌ، مع أنَّ الأنفالَ مَدنيَّةٌ.
والأظهَرُ أنَّ هذه الآيةَ كغَيرِها من سورةِ الأنفالِ مَدَنيَّةٌ؛ وذلك أنَّ الله لَمَّا فتح على نبيِّه، ونَصَره يومَ بَدرٍ، وأنزل سورةَ الأنفال في وقعةِ بَدرٍ؛ ذكَّرَ نبيَّه بنِعَمِه الماضيةِ عليه في مكَّةَ قبل هِجرَتِه منها، وعرَّفَه إنعامَه عليه؛ حيث أنجاه مِن مَكرِ أعدائه).
((العذب النمير)) (571/4).
ذكر ابنُ كثير (٧/ ٥٩) مَن قال بأن معنى ﴿ليثبتوك﴾: لِيُقَيِّدوك.
ومن قال بأن المعنى: لِيَحْبِسُوك.
ثم علَّق على قول السدي قائلًا: «وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مُجْمَع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء».
وزاد ابنُ عطية (٤/ ١٧٣) قولًا نقله عن الطبري أن المعنى: «ليسحروك».

وقال عزَّ وجلَّ: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ [التوبة: 40].

وقال سبحانه: وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا [الإسراء: 76].

وقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ [إبراهيم: 13].

وقال سبحانه: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا [الأعراف: 88].

وقال عزَّ وجلَّ: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [النمل: 56].

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ.

أي: ويكيدُ بك كفَّارُ مكَّةَ في الخفاءِ، ويكيدُ اللهُ بهم أيضًا مِن حيثُ لا يَشعرونَ، فاستَنْقَذ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وأهلَكهم.(94)

---

(94) قال الشنقيطي: (وَاللَّهُ جلَّ وعلا خَيْرُ الْمَاكِرِينَ مكر لك بهم، وأخرجك، ونجَّاك، وأظْفَرك بهم يومَ بدرٍ حتى قتلتَهم وأسرتَهم).
((العذب النمير)) (4/573).

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

أي: واللهُ تعالى هو أفضَلُ مَن يُجازي بالسَّيئةِ العُقوبةَ، فيمكُرُ بمن كفَرَ به وعصاه، فيُجازيهم بما يستحقُّونَه، ولا أحدَ أقدرُ على ذلك مِنه.

كما قال تعالى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا [الطارق: 15–16].

وقال عزَّ وجلَّ عن اليهودِ الذين أرادوا المكرَ بنبيِّه عيسَى عليه السلامُ: وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا [آل عمران: 54–55].

وقال سبحانه: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد: 42].

وقال تعالى: وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ [إبراهيم: 46].

وبيَّن بعضَ مكرِ قومِ صالحٍ، بقوله: وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ [النمل: 50–53].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ [الأنعام: 123].

وقال تعالى: وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ [فاطر: 43].

وقال سبحانه: وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ [فاطر: 10].

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ (31).

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا.

أي: وإذا تُتلَى على هؤلاءِ الكُفَّارِ مِن قُريشٍ آياتُ كِتابِنا، قالوا قولًا يَغُرُّونَ به أنفُسَهم، ومَن اتَّبَعَهم على باطِلِهم؛ تمرُّدًا وعِنادًا منهم للحَقِّ، قالوا: قد سَمِعْناها، ولو نشاءُ لَقُلْنا مثلَ هذا الذي تُلِيَ علينا.(95)

---

(95) قال ابنُ عطيَّة: (والذي تواتَرَت به الرِّواياتُ عن ابنِ جُرَيجٍ والسُّدِّي وابنِ جُبَيرٍ: الذي قال هذه المقالةَ هو النَّضرُ بنُ الحارث، وذلك أنَّه كان كثيرَ السَّفَرِ إلى فارس والحيرة، فكان قد سَمِعَ مِن قَصصِ الرُّهبانِ والأناجيل، وسَمِعَ من أخبارِ رُستُم وإسبنديار، فلما سَمِعَ القُرآنَ، ورأى فيه من أخبارِ الأنبياءِ والأُمَم، قال: لو شِئْتُ لَقُلْتُ مثلَ هذا!).

((تفسير ابن عطية)) (520/2).

ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (205/2)، ((تفسير ابن كثير)) (46/4).

كما قال تعالى: وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 21 – 23].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ [الأنعام: 93].

إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

أي: يقولُ الكفَّارُ إذا سَمِعوا القُرآنَ: ما هذا القرآنُ إلَّا أكاذيبُ، سَطَرَها الأقدمونَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ في كُتُبِهِم.

كما قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [الأنعام: 25].

وقال سبحانه: وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا [الفرقان: 5].

وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32).

أي: واذكر– يا مُحمَّدُ– حين قال كُفَّارُ قُريشٍ:[96] اللَّهمَّ، إن كان ما يقولُه مُحمَّدٌ حقًّا، مُنزَّلًا مِن عِندِك؛ فأنزِلْ علينا مِن السَّماءِ حِجارةً مُتتابعةً كما ينزِلُ المَطَرُ، أو عَذِّبْنا في الدُّنيا بعذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.[97]

كما قال تعالى: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [العنكبوت: 53].

وقال سبحانه: وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ [ص: 16].

وقال عزَّ وجلَّ: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ [المعارج: 1–3].

---

(96) قال الواحدي: (وجميعُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا مِن قَولِ النَّضرِ بنِ الحارِثِ، ورُوِيَ في الصَّحيحينِ أنَّ هذا من قولِ أبي جهلٍ– لعَنَهما اللهُ).

((الوسيط)) (457/2).

وقال محمد رشيد رضا: (ولا ينافي ذلك ما في الصَّحيحِ؛ لاحتمالِ أن يكونا قالاه، ولكِنَّ نِسبتَه إلى أبي جَهلٍ أَوْلَى).

((تفسير المنار)) (545/9).

وقال ابنُ عاشور: (وقائِلُ هذه المقالةِ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ صاحِبُ المقالةِ السَّابقة، وقالها أيضًا أبو جهلٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (331/9).

وقال ابن عطية: (وترتُّبُ أن يقولَ النَّضرُ بن الحارث مقالةً، وينسُبَها القرآنُ إلى جميعِهم؛ لأنَّ النَّضرَ كان فيهم موسومًا بالنُّبلِ والفَهمِ، مسكونًا إلى قَولِه، فكان إذا قال قَولًا قاله منهم كثيرٌ، واتَّبعوه عليه حَسَبَما يفعَلُه النَّاسُ أبدًا بعُلَمائِهم وفُقَهائِهم).

((تفسير ابن عطية)) (520/2).

(97) وقد أتاهم اللهُ عزَّ وجلَّ بعذابٍ أليمٍ، قال ابنُ جريرٍ: (وكان ذلك العَذابُ قَتْلَهم بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ).

((تفسير ابن جرير)) (144/11).

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال أبو جهلٍ: اللهُمَّ، إن كانَ هذا هو الحَقَّ مِن عِندِك؛ فأمطِرْ علينا حجارةً مِن السَّماءِ، أو ائتِنا بعذابٍ أليمٍ، فنزَلَت: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... الآية).[98]

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33).

وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ.

أي: وما كان اللهُ لِيُعذِّبَ كفَّارَ قُريشٍ، وأنت مُقيمٌ بين أظهُرِهم- يا محمَّدُ؛ لأنِّي لا أُهلِكُ أهْلَ بلدةٍ وفيها نبيُّهم، حتى يَخرُجَ منها.[99]

---

(98) رواه البخاري (4649)، ومسلم (2796).

(99) قال ابنُ عطية: (أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ معنى قَولِه: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ أنَّ الله عَزَّ وجلَّ لم يُعَذِّبْ قَطُّ أمَّةً ونبيُّها بين أظهُرِها، فما كان لِيُعَذِّبَ هذه وأنت فيهم، بل كرامَتُك لديه أعظَمُ).

((تفسير ابن عطية)) (521/2).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ولهذا لَمَّا خرج من بينِ أظهُرِهم، أوقعَ اللهُ بهم بأسَه يومَ بَدرٍ، فقُتِلَ صناديدُهم، وأُسِرَت سَراتُهم).

((تفسير ابن كثير)) (50/4).

اخْتُلِفَ في معنى قوله تعالى: ﴿وما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ وما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على أقوال: الأول: خطاب للنبي – ﷺ – وهو مقيم بمكة بقوله: وما كان الله ليعذب مشـــركي أهل مكة وأنت مقيم بين أظهرهم، وما كان الله معذبهم وقد بقي فيهم من المسلمين قوم يستغفرون.

ثم خرج أولئك البقية من المسلمين من بينهم فعُذِّب الكفار.

الثاني: وما كان الله ليعذبهم وأنت مقيم بين أظهرهم، وما كان الله معذبهم وهم يقولون: يا رب غفرانك.

وقوله: ﴿وما لَهُمْ ألا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ في الآخرة.

وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ.

أي: وما كان اللهُ مُعذِّبَ أولئك الكُفَّارِ لو أنَّهم كانوا يستغفرونَ اللهَ مِن كُفرِهم وذُنوبِهم، لكنَّهم لا يَفعلونَ، وهم على ضَلالِهم مُصِرُّونَ، فهُم للعذابِ مُستحِقُّونَ.(100)

الثالث: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، أن لو استغفروا.

الرابع: وما كان الله معذبهم وهم يسلمون، فالاستغفار في هذا الموضع الإسلام.

الخامس: وما كان الله معذب من قد سبق له من الله الدخول في الإسلام.

السادس: وما كان الله معذبهم وهم يصلون.

السابع: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وما لَهُمْ ألا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ﴾.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ١٥٧) مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ الثالث، بأن المعنى: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، أن لو استغفروا، ولكنهم لا يستغفرون.

وهو قول قتادة، والسدي، وابن زيد.

ثم انتقَدَ (١١/ ١٥٨) مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ الثاني قائلًا: «ولا وجه لإيعادهم العذاب في الآخرة وهم مستعجلوه في العاجل، ولا شك أنهم في الآخرة إلى العذاب صائرون، بل في تعجيل الله لهم ذلك يوم بدر الدليل الواضح على أن القول في ذلك ما قلنا».

وانتقد مستندًا إلى السياق القول الأول قائلًا: «وكذلك لا وجه لقول من وجَّه قوله: ﴿وما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إلى أنه عُنِي به المؤمنون، وهو في سياق الخبر عنهم، وعَمّا الله فاعل بهم، ولا دليل على أن الخبر عنهم قد تقَضّى، وعلى أن ذلك به عُنُوا، وألا خلاف في تأويله من أهله موجود».

ووافقه ابنُ عطية (٤/ ١٧٨)، فقال: «ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين ردَّ الضمير عليهم لم يَجْرِ لهم ذِكْر».

ثمّ انتقد ابنُ جرير مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ السابعَ قائلًا: "وكذلك أيضًا لا وجه لقول من قال: ذلك منسوخ بقوله: ﴿وما لَهُمْ ألا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ﴾ الآية؛ لأن قوله –جلّ ثناؤه–: ﴿وما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ خبر، والخبر لا يجوز أن يكون فيه نسخ، وإنما يكون النسخ للأمر أو النهي.

ووافقه ابنُ عطية (٤/ ١٨٠).

وبيَّن (٤/ ١٧٨) أن من قال بأن معنى ﴿يَسْتَغْفِرون﴾: يُسلِمون.

ومن قال: يُصلُّون.

تتقارب أقوالهم مع قول قتادة.

(100) قال ابنُ تيمية: (فأخبَرَ أنَّه لا يُعَذِّبُ مُستغفِرًا؛ لأنَّ الاستغفارَ يمحو الذَّنبَ الذي هو سبَبُ العَذابِ، فيندفِعُ العذابُ).

وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (34).

وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: أيُّ شَيءٍ يمنَعُ أولئكَ المُشركينَ مِن أن يُعَذِّبهم اللهُ تعالى، والحالُ أنَّهم فعلوا ما يُوجِبُ عذابَهم، وهو مَنعُهم المسلمينَ من الوصولِ إلى المسجِدِ الحرامِ للصَّلاةِ فيه، والطَّوافِ، والعبادةِ؟!

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [الحج: 25].

وقال سبحانه: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة: 114].

وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ.

((مجموع الفتاوى)) (163/8).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا العذابُ المدفوعُ فهو يعُمُّ العذابَ السَّماويَّ، ويعمُّ ما يكونُ من العبادِ؛ وذلك أنَّ الجميعَ قد سمَّاه اللهُ عذابًا، كما قال تعالى في النَّوعِ الثاني: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ [البقرة: 49]

وقال تعالى: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ [التوبة: 14]

وكذلك: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا [التوبة: 52]

إذ التَّقديرُ بعذابٍ مِن عِندِه أو بعذابٍ بأيدينا، كما قال تعالى: قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ).

((مجموع الفتاوى)) (42/15).

أي: وما كان كفَّارُ قُريشٍ أولياءَ المسجدِ الحرامِ، ولا أهلَه.[101]

كما قال تعالى: مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ [التوبة: 17].

وقال سبحانه: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ [البقرة: 217].

إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ.

أي: ما أولياءُ هذا البيتِ في الحقيقةِ إلَّا المؤمنونَ بالله، المتَّقونَ للشركِ والمعاصي.

---

(101) وممَّن اختارَ عوْدَ الضَّميرِ على المسجِدِ الحرامِ: الواحديُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ.

ونسبَه ابنُ الجوزي للجُمهورِ.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 439)، ((تفسير ابن كثير)) (51/4)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (589/4)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (208/2).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلف الحسنُ.

يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (208/2).

وممن اختار عودَ الضَّميرِ أَوْلِيَاءَهُ على اللهِ تعالى: ابنُ جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (159/11).

وجمع ابنُ تيميَّةَ بين المعنيين.

يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (164/11).

وقال ابنُ عطية: (والضَّميرُ في قولِه: أَوْلِيَاءَهُ عائدٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَولِه: يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ أو على الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، كلُّ ذلك جَيِّدٌ).

((تفسير ابن عطية)) (522/2).

ويُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (208/2).

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ.

أي: ولكنَّ أكثَرَ مُشركي قُريشٍ لا يَعلمونَ أنَّ ولايةَ بيتِ الله لَمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له، فلذلك ادَّعَوْا لأنفسِهم أمرًا، غيرُهم أولَى به.(102)

وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (35).

وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً.

أي: وما كان صلاةُ كفَّارِ قُريشٍ عند الكعبةِ إلَّا صفيرًا وتَصفيقًا.(103)

فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ.

---

(102) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماءِ: عبَّرَ هنا بالأكثَرِ عن الجميع، والعرَبُ تعبِّرُ بالأكثَرِ عن الجميعِ، وبالقِلَّةِ عن لا شَيءٍ، وهو أسلوبٌ معروفٌ.

وقال بعض العلماءِ: الأكثَرُ على ظاهِرِه؛ لأنَّ بَعضَهم يعلَمُ أنَّ وِلايةَ بَيتِ اللهِ لِمَن هو مطيعٌ لله، لا مَن هو عاصٍ له).

((العذب النمير)) (4/589).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (9/338).

(103) قال ابنُ عطية: (المُكاءُ والتَّصديةُ كان مِن فِعلِ العرب قديمًا قبل الإسلامِ، على جهةِ التقَرُّب به والتشَرُّع، ..

وعلى هذا يستقيمُ تَعييرُهم وتنقُّصُهم بأنَّ شَرْعَهم وصلاتَهم وعبادتَهم، لم تكُن رَهبةً ولا رغبةً، إنما كانت مُكاءً وتصديةً مِن نوعِ اللَّعِب، ولكنَّهم كانوا يتزيَّدونَ فيها وقتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَشغلوه وأمَّتَه عن القِراءةِ والصَّلاةِ).

((تفسير ابن عطية)) (2/524، 525).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (2/412)، ((تفسير الرازي)) (15/481)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (1/244)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (4/590).

أي: قال اللهُ تعالى لِمُشركي قُريشٍ: فاطْعَموا[104] ألَمَ العَذابِ[105] بسبَبِ كُفرِكم.

(104) قال ابنُ جرير: (ليس بِذَوقٍ بفَمٍ، ولكنَّه ذَوقٌ بالحِسِّ، ووجودُ طَعمِ ألَمِه بالقُلوبِ).

((تفسير ابن جرير)) (168/11).

(105) ذهب ابنُ جريرٍ وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالعَذابِ هاهنا: ما حلَّ بالمُشركينَ يومَ بَدرٍ؛ مِن قَتلٍ وأسْرٍ ونحو ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (168/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (339/9).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: ابنُ إسحاقَ، وابنُ جريجٍ، والضَّحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1697/5)، ((تفسير ابن جرير)) (169/11).

وقال الرازي: (قيل: يقالُ لهم في الآخرة: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ).

((تفسير الرازي)) (481/15).

وقال الشَّوكاني: (والمرادُ به: عذابُ الدُّنيا كيومِ بَدرٍ، وعذابُ الآخرةِ).

((تفسير الشوكاني)) (349/2).

سُورةُ الأنفالِ

الآيتان (36–37)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)

غريب الكلمات:

حَسْرَةً: أي: ندامةً واغتمامًا. وأصلُ (حسر): يدلُّ على كَشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ.

لِيَمِيزَ أي: لِيَفصِلَ ويُخَلِّصَ. وأصلُ (ميز) يدلُّ على انفصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

فَيَرْكُمَهُ: أي: فيَجمَعَه، ويَضُمَّ بَعضَه إلى بعضٍ، والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعضٍ. وأصل (ركم) يدلُّ على تجمُّعِ الشيء.

تفسير الآيتين:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ.

أي: إنَّ الكفَّارَ مِن مُشرِكي قُريشٍ، يُنفِقونَ أموالَهم لِيتقَوَّوا بها على قتالِ المُسلمينَ، ولِيَصرِفوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ.[106]

---

(106) قال ابن جرير: (جائزٌ أن يكونَ عنى المُنفِقينَ أموالَهم لِقِتالِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه بأحُدٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى المُنفِقينَ منهم ذلك ببَدرٍ، وجائزٌ أن يكونَ عَنى الفريقينِ، وإذا كان ذلك كذلك فالصَّوابُ في ذلك أن يَعُمَّ كما عمَّ جَلَّ ثناؤه الذين كَفَروا من قُريشٍ).

((تفسير ابن جرير)) (174/11).

وقال الشنقيطي: (الذي عليه جُمهورُ العُلَماءِ مِن المُفَسِّرين وأصحاب المغازي والتَّاريخ: أنَّ هذه الآيةَ مِن سُورةِ الأنفال: إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ نزلت في قضيَّةِ قُريشٍ مع عيرِ أبي سُفيانَ؛ لأنَّ عِيرَ أبي سُفيانَ لَمَّا نجَتْ، وقُتِلَ مَن قُتِلَ من أشرافِهم يومَ بَدرٍ، اجتمَعَ أشرافُ قُريشٍ، وطلَبُوا كلَّ مَن كانت له تجارةٌ في تلك العيرِ أن يَمنَحهم ذلك المالَ؛ لِيَستعِينوا به، ويَستَعْدُوا على حربِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، طالبِينَ منهم إدراكَ الثَّأرِ، فكانت إمكانيَّاتُ أحُدٍ هي من أموالِ تجاراتِ تلك العيرِ، وأنَّ ذلك هو معنى إنفاقِهم لِيَصُدُّوا عن سبيلِ اللهِ.

هذا هو الأصوَبُ إن شاء الله، وعليه جماهيرُ العُلَماءِ).

((العذب النمير)) (594/4).

اخْتُلِفَ في من تَوَلَّى النفقة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية، على قولين: الأول: تَوَلَّى ذلك أبو سفيان.

الثاني: تولى ذلك المشركون من أهل بدر.

فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ.

أي: فَسيُنفِقُ الكفَّارُ أموالَهم لمحاربةِ المُسلمينَ، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ، ثمَّ تَصيرُ نَفَقتُهم ندامةً شديدةً عليهم، حين تذهَبُ أموالُهم سُدًى بلا طائلٍ، فلا يظفَرونَ بما كانوا فيه يَطمَعونَ، وهم في آخِرِ الأمرِ يُغلَبونَ ويُقهَرونَ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ [المجادلة: 20–21].

وقال سبحانه: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ [آل عمران: 12].

وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ.

أي: والكُفَّارُ يجمَعُهم اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ إلى نارِ جهنَّمَ؛ ليُعذَّبوا فيها.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ١٧٤) مستندًا إلى دلالة العموم أنّ الله أخبر عن الذين كفروا من مشركي قريش أنهم ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وعليه فكِلا القولين مندرج تحت عموم الآية، ثم قال: "وإذ كان ذلك كذلك، فالصواب في ذلك أن يَعُمَّ كما عمَّ -جلَّ ثناؤه- الذين كفروا من قريش.

ووافقه ابنُ كثير (٧/ ٧٤)، فقال: «وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصًّا».

وعلَّق ابنُ عطية (٤/ ١٨٦) على كلا القولين، فقال: «وعلى القولين فإنما أُنفِق المال في غزوة أحد، فأخبر الله تعالى في هذه الآية خبرًا لفظه عام في الكفار، والإشارة به إلى مخصوصين أنهم ينفقون أموالهم يقصدون بذلك الصد عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام، ثم أخبر خبرًا يخص المشار إليهم أنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إذ لا تتم لهم إرادة، ويذهب المال باطلًا».

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37).

لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

أي: يحشُرُ اللهُ الكفَّارَ الخَبيثينَ إلى جهنَّم؛ ليُفرِّق بينهم وبين المؤمنين الطيِّبينَ، فيكونَ الكفَّارُ في جهنَّم، والمؤمنونَ في الجنَّةِ.(107)

---

(107) وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه تعالى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...

يحتملُ أن يكونَ هذا التمييزُ في الآخرةِ، كما قال تعالى: ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ [يونس: 28] ، وقال تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الروم: 14، وقال في الآية الأخرى: يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ [الروم: 43]، وقال تعالى: وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ [يس: 59] .

ويحتملُ أن يكونَ هذا التَّمييزُ في الدُّنيا، بما يظهرُ مِن أعمالِهم للمُؤمنينَ، وتكونَ اللَّامُ معلِّلةً لِما جعلَ اللهُ للكُفَّارِ مِن مالٍ يُنفِقونَ في الصَّدِّ عن سبيل الله، أي: إنَّما أقدَرْناهم على ذلك؛ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ أي: مَن يُطيعُه بقِتالِ أعدائِه الكافرين، أو يَعصيه بالنُّكولِ عَن ذلك؛ كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ [آل عمران: 166، 167] الآية، وقال تعالى: مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ [آل عمران: 179] الآية، وقال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142]، ونظيرَتُها في براءة أيضًا.

فمَعنى الآيةِ على هذا: إنَّما ابتَلَيناكم بالكُفَّارِ يُقاتِلونكم، وأقدَرْناهم على إنفاقِ الأموالِ وبَذْلِها في ذلك؛ ليتميَّزَ الخبيثُ من الطيِّبِ، فيُجعَلَ الخبيثُ بعضُه على بعضٍ).

((تفسير ابن كثير)) (54/4).

ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (601/4).

وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ.

أي: ويجعَلَ اللهُ الكُفَّارَ الخبيثِينَ بعضَهم فوقَ بَعضٍ، فيجمَعَهم جميعًا؛ حتى يتَراكَموا ويَكثُروا، فيجعَلَهم كلَّهم في نارِ جَهنَّمَ.[108]

أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: أولئك الكفَّارُ الخبيثونَ، الذين يُجمعون كلُّهم، فيُركَمون في جهنَّمَ، هم الذين خسِروا أنفسَهم وأهْليهم يومَ القيامةِ، وخسِروا الدُّنيا والآخرةَ، وذلك هو الخسرانُ المبينُ.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الزمر: 15].

---

(108) قال ابن عاشور: (وجَعْلُ الخَبيثِ بَعضَه على بعضٍ: عِلَّةٌ أخرى لِحَشرِ الكافرينَ إلى جهنَّم؛ ولذلك عُطِفَ بالواو، فالمقصودُ جَمعُ الخبيثِ- وإن اختلَفَت أصنافُه- في مجمَعٍ واحدٍ؛ لزيادةِ تَمييزِه عن الطَّيِّب، ولتشهيرِ مَن كانوا يُسِرُّون الكُفرَ ويُظهِرونَ الإيمانَ، وفي جَمعِه بهذه الكيفيَّةِ تَذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يُجعَلُ بعضُهم على بعضٍ حتى يصيرُوا رِكامًا).
((تفسير ابن عاشور)) (343/9).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (38-40)

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)
وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ
تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

غريب الكلمات:

سَلَفَ: أي: مضَى، والسَّلَفُ: المتقدمُ، وأصلُ (سلف): تَقَدُّم وَسَبْق.

تفسير الآيات:

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِنۡ يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ (38).

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ.

أي: قُل– يا مُحمَّدُ– لكُفَّارِ قُريشٍ: إنْ يَترُكوا الكُفرَ، وقِتالَ المؤمنينَ، يَغفِرِ اللهُ لهم ما قد تقدَّمَ مِن كُفرِهم ومَعاصيهم.

كما قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر: 53].

وعَن عَمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال له: ((أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسلامَ يَهدِمُ ما كان قَبلَه)).[109]

وَإِنۡ يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ.

أي: وإنْ يَعُدْ هؤلاءِ المُشركونَ مِن قُريشٍ إلى قتالِك، ويستمِرُّوا على كُفرِهم؛ فقد مَضَت طريقَتُنا في إهلاكِ كُفَّارِ قُريشٍ في يومِ بَدرٍ، وإهلاكِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ الماضيةِ.[110]

---

(109) رواه مسلم (121).

(110) ذكر ابن عطية (٤/ ١٩٠) أنّ معنى الآية: فقد رأيتم ببدرٍ وسمعتم عن الأمم ما حلَّ.
ثم علَّق قائلًا: «والتخويف عليهم بيوم بدرٍ أشدُّ، إذ هي القريبة منهم، والمعايَنَةُ عندهم».

كما قال تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً [فاطر: 43-44].

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِله فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39).

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ.

أي: وقاتِلوا- أيُّها المؤمِنونَ- الكُفَّارَ؛ حتَّى لا يكونَ في الأرضِ شِركٌ يُفتَنُ بِسَبَبِه النَّاسُ.

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدُوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويُقيمُوا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دِماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ)).(111)

وعنِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أيضًا، (أنَّه أتاه رَجُلانِ في فتنةِ ابنِ الزُّبيرِ، فقالا: إنَّ النَّاسَ صَنَعوا وأنت ابنُ عُمرَ، وصاحِبُ النبيِّ - ﷺ -، فما يمنَعُك أن تخرُجَ؟! فقال: يمنَعُني أنَّ اللهَ حرَّمَ دمَ أخي. فقالا: ألَمْ يقُلِ اللهُ: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ؟! فقال: قاتَلْنا حتَّى لم تكُنْ فِتنةٌ، وكان الدِّينُ لله، وأنتم تريدونَ أن تُقاتِلوا حتى تكونَ فِتنةٌ، ويكونَ الدِّينُ لِغيرِ الله!).(112)

---

(111) رواه البخاري (25) واللفظ له، ومسلم (22).

(112) رواه البخاري (4513).

وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ.

أي: وقاتِلوا الكفَّارَ حتى تكونَ الطَّاعةُ والعبادةُ كُلُّها خالصةً لله وَحدَه، وينتشِرَ الإسلامُ، فلا يُعبَد إلَّا اللهُ وَحدَه لا شَريكَ له.

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سئِلَ رَسولُ الله - ﷺ - عن الرَّجُلِ يُقاتِلُ شَجاعةً، ويُقاتِلُ حَمِيَّةً، ويقاتِلُ رِياءً، أيُّ ذلك في سبيلِ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ - ﷺ -: مَن قاتَلَ لِتَكونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُليا فهو في سبيلِ اللهِ)).[113]

فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: فإن انتَهى الكُفَّارُ عن الشِّرْكِ وأسلَموا؛[114] فإنَّ اللهَ لا يخفى عليه ما يَعمَلونَ في الظَّاهِرِ والباطِنِ، فيُجازيهم عليه، فكُفُّوا عن قِتالِهم، وإنْ لم تعلَموا بواطِنَهم.

كما قال تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [التوبة: 5].

(113) رواه البخاري (123) ومسلم (1904)، واللفظ له.

(114) رجَّح ابنُ جرير (١١/ ١٨٣) أنّ معنى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾: فإن انتهوا عن الفتنة، وهي الشرك بالله؛ مستندًا لدلالة العقل، وقال: «لأن المشركين وإن انتهوا عن القتال، فإنه كان فرضًا على المؤمنين قتالهم حتى يُسلِموا».

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((بَعَثَنا رسولُ اللهِ - ﷺ - في سَرِيَّةٍ، فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ[115] مِن جُهَينةَ، فأدركْتُ رجلًا، فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فطَعَنْتُه فوقَعَ في نفسي مِن ذلك، فذكَرْتُه للنبيِّ - ﷺ -، فقال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: أقالَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وقَتَلْتَه؟! قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنَّما قالها خوفًا مِن السِّلاحِ، قال: أفَلَا شقَقْتَ عن قَلْبِه، حتى تعلَمَ أقالَها أم لا؟! فما زالَ يكرِّرُها عليَّ حتى تمنَّيتُ أنِّي أسلَمْتُ يومَئذٍ))[116].

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40).

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ.

أي: وإنْ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الإيمانِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ والقتالِ، فقاتِلوهم، وأيقِنُوا أنَّ اللهَ وليُّكم وسيِّدُكم، الذي يُعينُكم، ويَنصُرُكم عليهم.[117]

---

(115) فصَبَّحْنا الحُرُقاتِ: أي: أتوهم وهَجموا عليهم صباحًا، قبلَ أنْ يَشْعُروا بهم.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (6/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (195/12).
والحرقات: قبيلةٌ مِن جهينة، والظاهرُ أنَّه جمعُ حرقة، واسمُه: جهيشُ بنُ عامرٍ، قيل: سُمِّي الحرقة؛ لأنَّه حرقَ قومًا بالنبلِ فبالَغ في ذلك.
يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (271/17).

(116) رواه البخاري (4269) ومسلم (96)، واللفظ له.

(117) قال ابنُ عطيةَ: (وقولَه تعالى: وَإِنْ تَوَلَّوْا...
الآيةَ، معادلٌ لقولِه: فَإِنِ انْتَهَوْا، والمعنى: فإنِ انْتَهوا عن الكفرِ، فاللهُ مجازيهم...
وإن تولَّوْا، ولم ينتهوا، فاعلموا أنَّ الله ينصرُكم عليهم، وهذا وعدٌ محضٌ بالنصرِ والظَّفرِ، أي: فجدُّوا).
((تفسير ابن عطية)) (528/2).

نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

أي: الله عزَّ وجلَّ هو نِعْمَ المُعينُ لأوليائِه، ونِعْمَ النَّاصِرُ لهم، الذي ينصُرُهم على أعدائِهم.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا [النساء: 45].

وقال سبحانه: وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [الحج: 78].

سُورةُ الأنفالِ

الآيتين (41–42)

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (41) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ
لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ
بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)

غريب الكلمات:

غَنِمْتُمْ: المَغنَمُ والغنيمةُ: ما أُصيبَ مِن أموالِ المُحاربينَ قهرًا. وأصلُ (غنم) يدلُّ على إفادةِ شَيءٍ لم يُملَك مِن قَبلُ.

بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا: أي: بِجانب الوادي ممَّا يلي المدينةَ. وأصلُ (عدو) يدلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ.

بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى: أي: بالجانِبِ الأبعدِ مِن المدينةِ. وأصلُ (قصو) يدلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ.

وَالرَّكْبُ: أي: راكِبو الإبِلِ، والمقصودُ عِيرُ أبي سفيانَ أي: ركبُ التجارةِ. وَأصلُ (ركب): يدلُّ على عُلوِّ شيءٍ شَيئًا.

بَيِّنَةٍ: أي: حُجَّةٍ. والبيّنةُ كذلك: الدَّلالةُ الواضِحةُ؛ يقالُ: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ.

تفسير الآيتين:

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41).

وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ.(118)

(118) اختلف في معنى قوله: ﴿فأن لله خمسه﴾ وتقسيم الخمس الخامس، على أقوال؛ الأول: ذِكْر الله هنا استفتاح كلام للتَّبَرُّك، ومعنى الكلام: فأن للرسول خمسه، وعلى هذا فالخمس مقسوم على خمسة أسهم: سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل.

الثاني: أن لبيْت الله خمسه وللرسول، وهو قول يقتضي أن يقسم الخمس على ستة أسهم.

الثالث: أنه يقسم على أربعة أسهم، فسهم الله وسهم رسوله عائد على ذوي القربى؛ لأن النبي – ﷺ – لم يكن يأخذ منه شيئًا.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ١٩١) مستندًا إلى الإجماع في عدم تقسيم الخمس على ستة القولَ الأولَ الذي قاله الحسن بن محمد، والحسن البصري، وعطاء، وقتادة، وإبراهيم النخعي، والشعبي، وابن بريدة.

وانتقد الثاني الذي قاله أبو العالية، فقال: «لإجماع الحجة على أن الخُمُس غير جائز قَسْمُهُ على ستة أسهم، ولو كان لله فيه سهم –كما قال أبو العالية– لوجب أن يكون خُمُس الغنيمة مقسومًا على ستة أسهم، وإنما اختلف أهل العلم في قَسْمه على خمسة فما دونها، فأمّا على أكثر من ذلك فمما لا نعلم قائلًا قاله غير الذي ذكرنا من الخبر عن أبي العالية، وفي إجماع من ذَكَرْتُ الدلالةُ الواضحة على صحة ما اخترنا».

ثم ذكر أن من قال بالقول الثالث: سهم الرسول لذوي القربى «فقد أوجب للرسول سهمًا، وإن كان – ﷺ – صرفه إلى ذوي قرابته، فلم يخرج من أن يكون القَسْم كان على خمسة أسهم».

وكذا رجَّحه ابنُ تيمية (٣/ ٢٧٨ – ٢٧٩) مستندًا إلى السنة، وأقوال السلف، فقال: «وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال».

وذكر ابنُ كثير (٧/ ٨٢ – ٨٥) أنّ القول الأول يؤيده حديث عبد الله بن شقيق، وأنه أعم وأشمل؛ لإفادته أن الرسول – ﷺ – كان يتصرف في الخمس كيف يشاء، ويردّه في أمته كيف يشاء، وهو الأمر الذي شهدت له الأحاديث والآثار، حيث كان

أي: واعلَموا -[119] أيُّها المؤمنونَ الغانِمونَ- أنَّ أيَّ مالٍ تأخذونه مِن الكفَّارِ قهرًا،[120] إذا انتصَرتُم عليهم، فحقُّه أنَّ للهِ خُمُسَه، يُصرَفُ فيما أمَرَ اللهُ به.[121]

للنبي - ﷺ - من المغانم شيء يصطفيه لنفسه، كما هو في حديث جبير بن مطعم، حيث قال النبي - ﷺ -: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخُمُس».

(119) قال الشنقيطي: (وَاعْلَمُوا معناه: تيقَّنوا؛ لأنَّ العِلمَ إذا أُطلِقَ في القرآنِ: معناه اليَقينُ في جميعِ القرآنِ، وقد جاء في حَرفٍ في سورة الممتحنة إطلاقُ العِلمِ مُرادًا به الظنُّ الغالِبُ، وهو قولُه تعالى: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ [الممتحنة: 10] أي: غلَبَ على ظَنِّكم ظنًّا قويًّا مُزاحِمًا لليَقينِ، ولا يكادُ العِلمُ في غيرِ هذا الموضِعِ يُطلَقُ في القرآنِ إلا مُرادًا به اليقينُ الجازِمُ، الذي لا يُخالِجُه ظَنٌّ ولا وَهْمٌ ولا شَكٌّ).

((العذب النمير)) (12/5) بتصرف يسير.

(120) اختُلِفَ هل الغنيمة والفيء بمعنى واحد، أم يختلفان؟ على قولين: الأوّل: أنهما يختلفان، ثم في ذلك قولان: أحدهما: أن الغنيمة: ما ظُهر عليه من أموال المشركين، والفيء: ما ظُهر عليه من الأرض.

قاله عطاء بن السائب.

والآخر: أن الغنيمة: ما أُخذ عنوةً، والفيء: ما أُخذ عن صلح.

قاله سفيان الثوري.

والثاني: أنهما واحد، وهما كل ما نيل من المشركين، قاله قتادة.

وذكر ابن عطية (٤/ ١٩٢ - ١٩٣ بتصرف) أن الغنيمة هي: ما يناله المسلمون من عدوهم بالسَّعْي وإيجاف الخيل.

والفيء: مأخوذ من (فاء يفيء) إذا رجع، وهو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف كخراج الأرض، وجزية الجماجم، وخمس الغنيمة، وساق قول عطاء والثوري، ثم علَّق بقوله: «وهذا قريب مما بيناه».وذكر ابن كثير (٧/ ٨١) أن من يفرّق بين الغنيمة والفيء يقول بأن قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله﴾ نزلت في أمر الفيء، وقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم﴾ نزلت في أمر الغنيمة.

(121) قال الشّنقيطي: (التَّحقيقُ أنَّ نَصيبَ اللهِ جلَّ وعلا، ونصيبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ واحدٌ، وذِكْرُ اسمِه جلَّ وعلا استفتاحُ كلامٍ للتَّعظيم).

((أضواء البيان)) (59/2).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (191/11).

وعزاه البغويُّ إلى أكثرِ المفسِّرين والفقهاءِ، وقال: (وهو قولُ الحسنِ وقتادةَ وعطاءٍ وإبراهيمَ والشعبيِّ، قالوا: سهمُ اللهِ وسهمُ الرسولِ واحدٌ، والغنيمةُ تُقسمُ خمسةَ أخماسٍ، أربعةُ أخماسٍ لمَن قاتَل عليها، وخُمسٌ لخمسةِ أصنافٍ، كما ذكَر اللهُ عزَّ وجلَّ: وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قَدِمَ وَفدُ عبدِ القَيسِ على رسولِ اللهِ – ﷺ –، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّا– هذا الحيَّ– مِن ربيعةَ، وقد حالتْ بيننا وبينَك كُفَّارُ مُضَرَ، فلا نخلُصُ إليك إلَّا في شَهرِ الحرامِ، فمُرْنا بأمرٍ نَعمَلُ به، وندعو إليه مَن وَراءَنا، قال: آمُرُكم بأربَعٍ، وأنهاكم عن أربَعٍ: الإيمانُ باللهِ، ثمَّ فَسَّرَها لهم فقال: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وأنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ ما غَنِمْتُم)).[122]

وعن عبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، عن رجُلٍ مِن بُلقينَ، قال: ((أتيتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – وهو بوادي القُرى، وهو يَعرِضُ فرسًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما تقولُ في الغنيمةِ؟ فقال: لِلَّهِ خُمُسُها، وأربعةُ أخماسٍ للجَيشِ. قلتُ: فما أحدٌ أَوْلَى به مِن أحَدٍ؟ قال: لا، ولا السَّهمُ تَستخرِجُه مِن جَنبِك، ليس أنت أحَقَّ به مِن أخيك المُسلِم)).[123]

((تفسير البغوي)) (292/2).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الابتداءُ باسمِ اللهِ تعالى للإشارةِ إلى أنَّ ذلك الخُمُسَ حَقُّ اللهِ يَصرِفُه حيث يشاءُ، وقد شاء فوكَّلَ صَرْفَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَن يَخْلُف رسولَه من أئمَّةِ المُسلمينَ، وبهذا التَّأويلِ يكونُ الخُمُسُ مقسومًا على خمسةِ أَسهُمٍ، وهذا قولُ عامَّةِ عُلَماءِ الإسلامِ).

((تفسير ابن عاشور)) (8/10).

(122) رواه البخاري (87) ومسلم (17)، واللفظ له.

(123) أخرجه أبو يعلى في ((المسند)) (7179)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (5198)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (18012).

قوَّى إسنادَه النوويُّ في ((المهذب)) (3584/7)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((إرشاد الفقيه)) (328/2)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (53/1)، والألباني في ((إرواء الغليل)) (60/5)، وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (97/1): إسنادُه رجالُه ثقاتٌ.

وَلِلرَّسُولِ.

أي: ولِمُحمَّدٍ - ﷺ -؛ يتصَرَّفُ فيما جعَلَه اللهُ له من الخُمُسِ بما شاء في مصالِحِه ومصالِحِ المُسلمين.[124]

عن عمرِو بنِ عَبَسةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ - ﷺ - إلى بَعيرٍ مِن المَغنمِ، فلمَّا سلَّم أخَذَ وَبرةً مِن جَنبِ البَعيرِ، ثمَّ قال: ((ولا يَحِلُّ لي مِن غَنائِمِكم مِثلُ هذا إلَّا الخُمُسُ، والخُمُسُ مَردودٌ فيكم)).[125]

وَلِذِي الْقُرْبَى.

---

(124) اختلف في حكم سهم رسول الله - ﷺ - وسهم ذي القربى بعده، على أقوال: الأول: يُصْرَفان في معونة الإسلام وأهله.
والثاني: هما لولي الأمر.
والثالث: الخمس كله لقرابة النبي - ﷺ -.
والرابع: سهم رسول الله - ﷺ - مردود في الخمس، والخمس مقسوم على ثلاثة أسهم: على اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.
ونسبه ابنُ جرير لطائفة من العراق.
ورجَّح ابنُ جرير (١١/ ١٩٩ - ٢٠٠) مستندًا إلى الدلالات العقلية القولَ الأولَ الذي قاله ابن عباس من طريق علي، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، والحسن بن محمد، وقتادة، وإبراهيم، فقال: «لأن الله أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات، كما أوجب الأربعة الأخماس لآخرين، وقد أجمعوا أنّ حقّ الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم، فكذلك حق أهل الخمس لن يستحقه غيرهم، فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم، كما غير جائز أن تخرج بعض السُّهمان التي جعلها الله لمن سماه في كتابه بفقد بعض من يستحقه إلى غير أهل السُّهمان الأُخَر».
وعلَّق ابنُ كثير (٧/ ٨٦) على هذا القول بقوله: «وهذا قول طائفة كبيرة من العلماء».
(125) أخرجه أبو داود (2755)، والطبراني في ((مسند الشاميين)) (805)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (12943).
صحَّحه ابنُ دقيق العيدِ في ((الاقتراح)) (100)، ووثَّق رجالَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (8/88)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (2755).

أي: ولقرابةِ النبيِّ – ﷺ – مِن بني هاشمٍ وبني المطَّلِبِ.(126)

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مَشَيتُ أنا وعثمانُ بنُ عُفَّانَ إلى رسولِ اللهِ – ﷺ –، فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، أعطيتَ بني المُطَّلِب وتركتَنا، ونحنُ وهم منك بِمَنزلةٍ واحدةٍ! فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: إنَّما بنو المُطَّلِبِ وبنو هاشمٍ شَيءٌ واحِدٌ)). ولم يقسِمِ النبيُّ – ﷺ – لبني عبدِ شَمسٍ، ولا لبني نَوفَل، قال ابنُ إسحاقَ: عبدُ شمسٍ وهاشمٌ والمُطَّلِبُ: إخوةٌ لأُمٍّ، وأمُّهُم عاتكةُ بنتُ مُرَّةَ، وكان نوفل أخاهم لأبيهم.(127)

وَالْيَتَامَى.

أي: ولِيَتامى المُسلمينَ، الذين مات آباؤُهم وهم أطفالٌ.(128)

---

(126) ونَسبَ ابنُ كثيرٍ القَولَ بأنَّ قَرابَته هم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلِبِ، إلى جمهورِ العُلماء.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (64/4).
وقال ابنُ كثيرٍ: (وأمَّا سَهمُ ذوي القُربى فإنَّه يُصرَفُ إلى بني هاشمٍ وبني المُطَّلِب؛ لأنَّ بني المطَّلِب وازَرُوا بني هاشمٍ في الجاهليَّةِ وفي أوَّلِ الإسلامِ، ودخلوا معهم في الشِّعبِ غضبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحمايةً له: مُسلِمُهم طاعةً لله ولِرَسولِه، وكافِرُهم حَمِيَّةً للعشيرة، وأنفةً وطاعةً لأبي طالبٍ عمِّ رَسولِ اللهِ).
((تفسير ابن كثير)) (63/4).
وقال القاسمي: ((أجمَعوا على أنَّ المُرادَ بـ (ذوي القُربى) قرابتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).
((تفسير القاسمي)) (297/5).
(127) رواه البخاري (3140).
(128) قال الواحديُّ: (قال أهلُ المعاني: كلُّ من مات أبوه وهو صَـــغيرٌ، فهو يتيمٌ، ولا يُتْمَ بعد البُلوغِ، وكلُّ ولدٍ يتيمٌ مِن قِبَلِ أُمِّه إلَّا الإنسانَ فإنَّه يتيمٌ مِن قِبَلِ أبيه).
((البسيط)) (163/10).

وَالْمَسَاكِينِ.

أي: وللمُحتاجينَ مِن المُسلِمينَ.

وَابْنِ السَّبِيلِ.

أي: وللمُسافِرِ المُحتاجِ للمالِ في سَفَرِه.

إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ.

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنونَ- ما شَرَعْناه لكم في قِسمةِ الغَنائِمِ، إن كُنتُم آمَنتُم باللهِ تعالى، وآمَنتُم بما أنزَلْنا على عَبدِنا محمَّدٍ، مِن آياتِ كِتابِنا،[129] يومَ فرَقَ اللهُ بين الحَقّ والباطِلِ، يومَ الْتَقى جمعُ المُسلمينَ وجَمعُ الكُفَّارِ بِبَدرٍ.[130]

---

(129) قال الشـــنقيطيُّ: (إن كُنْتُم آمَنتُم باللهِ، وآمَنْتُم بالذي أنْزَلْنا على عَبْدِنا مُحَمَّدٍ صـــلَّى اللهُ عليه وســـلَّمَ من هذه الآياتِ القُرآنيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ أنزَلَها عليكم، ونَصَرَكم عندَ نُزولِها، وأمَرَكم فيها بأداءِ الخُمُسِ).

((العذب النمير)) (54/5).

قال ابنُ عاشورٍ: (والإنزالُ: هو إيصالُ شَيءٍ مِن عُلوٍ إلى سُفلٍ...

فيجوز أن يكونَ هذا المُنَزَّل من قَبيلِ الوَحيِ، أي: والوحي الذي أنزَلْناه على عَبدِنا يومَ بَدرٍ...

ويجوزُ أن يكونَ مِن قَبيلِ خَوارِقِ العاداتِ، والألطافِ العَجيبةِ، مثل إنزال الملائكةِ للنَّصرِ، وإنزالِ المطَرِ عند حاجةِ المُسلمينَ إليه، لتعبيدِ الطَّريقِ، وتثبيتِ الأقدامِ، والاستقاءِ...

ولا مانِعَ من إرادةِ الجَميعِ).

((تفسير ابن عاشور)) (14/10).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (165/10).

(130) قال ابن عطية: (ويومُ الفُرقانِ: معناه يومُ الفَرْقِ بين الحَقّ والباطِلِ، بإعزازِ الإسلامِ وإذلالِ الشِّركِ، والفُرقانُ مصدَرٌ: من فَرَقَ يَفرُقُ، والجَمْعانِ: يريدُ جَمعَ المُسلِمينَ، وجمعَ الكُفَّارِ، وهو يومُ الوقعةِ التي قُتِلَ فيها صناديدُ قُريشٍ ببَدرٍ، ولا خلافَ في ذلك، وعليه نصَّ ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ ومِقْسَمٌ، والحسنُ بن علي وقتادةُ وغيرهم).

((تفسير ابن عطية)) (532/2).

ذكر ابنُ عطية (٤/ ١٩٩) أنّ يوم الفرقان هو يوم وقعة بدر، وأنه لا خلاف في ذلك.

اختلف في وقت غزوة بدر على أقوال: الأول: كانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان.

وهو قول الجمهور.

والثاني: لتسع عشرة، وشَكَّ في ذلك عروة بن الزبير، وقال: لتسع عشرة أو لسبع عشرة.

ورجَّح ابن عطية (٤/ ١٩٩) القول الأول، فقال: «والصحيح ما عليه الجمهور».

ولم يذكر مستندًا.

وكذا رجَّحه ابن كثير (٧/ ٩٠) مستندًا إلى التاريخ، فقال: «وهو الصحيح عند أهل المغازي والسِّيَر».

وقال ابنُ عاشور: (كان يومُ بَدرٍ فارقًا بين الحَقّ والباطِلِ؛ لأنَّه أوَّلُ يومٍ ظَهرَ فيه نصرُ المُسلمين الضُّعفاءِ على المُشركينَ الأقوياءِ، وهو نَصرُ المُحِقّينَ الأذلَّةِ على الأعزَّةِ المُبطِلينَ، وكفى بذلك فُرقانًا وتَمييزًا بين مَن هم على الحَقّ، ومَن هم على الباطِلِ).

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرتُه على نَصرِ المُؤمنينَ على الكافرينَ، وإن كانوا قِلَّةً أذلَّةً، كما وقع يومَ بَدرٍ.

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42).

إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ.

أي: فرَقَ اللهُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ حينَ[131] كُنتم نازلِينَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أقرَبُ إلى المدينةِ، ومُشركو قُريشٍ نازِلونَ بِضَفَّةِ وادي بَدرٍ، التي هي أبعَدُ من المدينةِ، وأصحابُ الإبِلِ الذين معهم تجارةُ المُشركينَ؛ في موضعٍ أسفَلَ منكم ممَّا يلي ساحِلَ البَحرِ.[132]

((تفسير ابن عاشور)) (15/10).

(131) وقيل: إنَّ إِذْ بدَلٌ مِن يَوْمَ الْفُرْقَانِ وممَّن قال بهذا: الزَّمخشريُّ والشِّنقيطيُّ.

وقيل: إنَّه منصوبٌ بـ (اذكروا) مُقدَّرًا، وهو قولُ الزَّجَّاج.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (223/2)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (609/5)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (61/5).

(132) قال ابنُ عطيَّةَ: (وادي بدرٍ آخِذٌ بين الشَّـرقِ والقبلةِ، مُنحَرِفٌ إلى البَحرِ الذي هو قريبٌ مِن ذلك الصُّـقعِ، والمدينةُ مِن الوادي مِن مَوضِعِ الوقعةِ منه في الشَّرقِ، وبينهما مرحلتانِ...

والركبُ بإجماعٍ مِن المفسِّرينَ عِيرُ أبي سُفيانَ، ولا يقال: رَكْبٌ إلا لرُكَّابِ الإبلِ).

((تفسير ابن عطية)) (532/2).

وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ.

أي: ولو اتَّفقتُم– أيُّها المؤمنونَ– مع المُشركينَ على القتالِ في مكانٍ وزمانٍ مُحَدَّدينِ؛ لَمَا اجتمَعْتُم في ذلك المَوعِد.

وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً.

أي: ولكِن جَمَعَكم اللهُ ببدرٍ على غيرِ ميعادٍ بينكم وبينهم؛ لِينصُرَ اللهُ المؤمنينَ ويُعِزَّهم، ويُهلِكَ الكافرينَ ويُذِلَّهم، وكان ذلك قضاءً مُقدَّرًا لا بدَّ مِن وُقوعِه.

عن كعبِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّما خرج رسولُ اللهِ – ﷺ – والمُسلمونَ، يريدونَ عيرَ قُريشٍ، حتى جمَعَ اللهُ بينهم وبين عَدُوِّهم على غيرِ مِيعادٍ).[133]

لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ.

أي: جمَعَ اللهُ بين المؤمنينَ والكافرينَ بِبَدرٍ، ونصَرَ المؤمنينَ عليهم؛ وفرَق بين الحقّ والباطِلِ؛ من أجلِ أن يستمِرَّ في الكُفرِ مَن استمَرَّ فيه بعد قيامِ الحُجَّةِ عليه، ووضوحِ الأمرِ ببطلانِ الكُفرِ، فلا يبقَى

وقال الشِّنقيطي: (ومعنى كَونِه أسفَلَ: أنَّ وادي بدرٍ ذاهِبٌ إلى جِهةِ البَحرِ؛ فكُلُّ ما قرُبَ من البَحرِ منه فهو أسفَلُ، وما بَعُدَ منه فهو أعلى).

((العذب النمير)) (64/5).

(133) رواه البخاري (3951) ومسلم (2769)، واللفظ له.

له عذرٌ عندَ الله، ويؤمِنَ مَن آمنَ بعد ظُهورِ الحجَّةِ له، ووضوحِ الأمرِ بما لا شكَّ فيه أنَّ الإسلامَ حقٌّ.(134)

كما قال تعالى: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 122].

وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: وإنَّ اللهَ لَسَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ، ومِن ذلك أنه سميعٌ لدُعائِكم، وتَضَرُّعِكم، واسْتِغاثَتِكم به، عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ؛ فيعلمُ الظواهرَ والضمائرَ والسرائرَ، والغيبَ والشهادةَ، وكلِّ ما يفعلُه خلقُه، لا تخفَى عليه خافِيةٌ، ومِن ذلك علمُه أنَّكم تستحِقُّون النَّصْرَ على أعدائِكم الكفرةِ المعانِدينَ، فاتَّقوا ربَّكم في منطِقِكم أنْ تنطِقوا بغيرِ حَقٍّ، وفي قُلوبِكم أنْ تعتقِدوا فيها غيرَ الرَّشَدِ.

---

(134) قال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المُرادَ بالهلاكِ هاهنا: الكُفرُ والضَّـــلالُ، وبالحياةِ: الاهتداءُ والدِّينُ، والمعنى: لِيَكفُرَ مَن كَفَرَ بعد حُجَّةٍ قامت عليه، فقَطَعَت عُذرَه، ويؤمِنَ مَن آمَنَ على مِثلِ ذلك).

((التفسير الوسيط)) (463/2).

سُورةُ الأنفالِ

الآيتان (43–44)

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

غريب الكلمات:

وَلَتَنَازَعْتُمْ: أي: وَلاختَلَفتُم، والتَّنازُع: التَّجاذُبُ والتَّخاصُمُ والتَّجادُلُ، وأصلُ (نزع) يدُلُّ على قَلعِ شَيءٍ.

تفسير الآيتين:

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43)

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً.

أي: اذكُر حين أراك اللهُ في نَومِك- يا مُحَمَّدُ- جيشَ الكافرينَ في بدرٍ، وهم قليلٌ، فأخبَرتَ المُسلمينَ برؤياك، فقَوِيَت قُلوبُهم على قتالِ الكافرينَ.[135]

وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ.

أي: ولو أراكَ اللهُ عَددَ الكافرينَ في منامِك كثيرًا، وأخبرتَ المُسلمينَ بذلك؛ لجَبُنوا وخافوا، واختَلَفوا في قتالِ المُشركِينَ.

---

(135) قال ابنُ عطية: (تظاهرت الرِّوايات أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، رأى فيها عددَ الكُفَّارِ قليلًا، فأخبَرَ بذلك أصحابَه، فقَوِيَت نفوسُهم، وحَرَصوا على اللِّقاءِ).
((تفسير ابن عطية)) (534/2).

وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ.

أي: ولكنَّ اللهَ سلَّم المسلمينَ مِن الفَشَلِ والتَّنازُعِ؛ بسبَبِ ما أراك في نَومِك مِن قِلَّةِ عَددِ الكافرينَ، فقَوِيَت قلوبُهم، وتجرَّؤوا على قتالِ عَدُوِّهم.(136)

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفيه الصُّدورُ؛ مِن الإيمانِ والكُفرِ، والوساوسِ وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (44).

---

(136) اختُلِف في معنى قوله: ﴿ولكن الله سلم﴾ على معنيين: الأول: ولكن الله سلَّم للمؤمنين أمرهم؛ حتى أظهرهم على عدوهم.

والثاني: ولكن الله سلَّم أمره فيهم.

ورجَّح ابن جرير (١١/ ٢١١) مستندًا إلى السياق القولَ الأول الذي قاله ابن عباس من طريق العوفي، فقال: «وذلك أن قوله: ﴿ولكن الله سلم﴾ عقيب قوله: ﴿ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر﴾، فالذي هو أوْلى بالخبر عنه أنَّه سلَّمَهم منه -جل ثناؤه- ما كان مَخُوفًا منه لو لم يُرَ نبيه - ﷺ - من قلة القوم في منامه».

ورجَّح ابن عطية (٤/ ٢٠٥) العموم، فقال: «و﴿سَلَّمَ﴾ لفظ يَعُمُّ كلَّ مُتَخَوَّف اتَّصَل بالأمر، أو عَرَض في وجهه، فسلَّم الله من ذلك كله».

وذكر أن ما ذُكر من أقوال يندرج فيما قال.

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً.

أي: واذكروا حين أراكُم اللهُ في اليقظةِ- أيُّها المؤمنونَ- جيشَ الكافرينَ قليلًا عندَ اللقاءِ؛ لِتتشجَّعوا على قتالِهم.[137]

عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (لقد قُلِّلوا في أعيُنِنا يومَ بَدرٍ، حتى قُلْتُ لرَجُلٍ إلى جانِبي: تُراهم سبعينَ؟ قال: لا، بل هم مئةٌ، حتى أخَذْنا رجُلًا منهم فسَألْناه، قال: كنَّا ألفًا).[138]

وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ.

أي: وقَلَّلَكم في أعيُنِ الكافرينَ؛ لِيَرَوكم أقَلَّ ممَّا أنتم عليه، فيَستَهينوا بقتالِكم.[139]

---

(137) قال ابنُ عطية: (هذه الرُّؤيةُ هي في اليَقَظةِ بإجماعٍ).
((تفسير ابن عطية)) (535/2).
وقال الشِّنقيطي: (هذا رأيٌ في العينِ تَصديقًا لِرُؤياه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).
((العذب النمير)) (72/5).
(138) أخرجه ابن أبي شيبة (36698)، وابن جرير في ((التفسير)) (6690)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (1710/5)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (147/10) (10269).
قال ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (387/4): (إسنادُه صحيحٌ، إن كان أبو عبيدةَ سَمِعَه من أبيه).
وقال ابنُ رجب: (وأبو عبيدة، وإن لم يسمَعْ من أبيه، إلا أنَّ أحاديثه عنه صحيحةٌ، تلقَّاها عن أهلِ بَيتِه الثِّقات العارفين بحديث أبيه: قاله ابنُ المديني وغيره).
((فتح الباري)) (342/7).
(139) قال ابن كثير: (ومعنى هذا أنَّه تعالى أغرى كُلًّا من الفريقينِ بالآخَرِ، وقلَّلَه في عَينِه؛ لِيَطمَعَ فيه، وذلك عند المواجَهة، فلما الْتَحَم القتالُ وأيَّدَ اللهُ المؤمنينَ بألفٍ مِن الملائكةِ مُردِفينَ، بقِيَ حزبُ الكفَّارِ يرى حزبَ الإيمانِ ضِعفَيه، كما قال تعالى: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ

لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً.

أي: خيَّل اللهُ لكُلِّ فريقٍ قِلَّةَ الفَريقِ الآخَرِ؛ لأجلِ أن يقَعَ ما قدَّره مِن قتالِ بَعضِهم بعضًا في بدرٍ، وانتصارِ المُسلمينَ، وإهلاكِ الكافرينَ.[140]

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ.

أي: وإلى اللهِ تعالى وَحدَه تَصيرُ جَميعُ أمورِ الخَلائقِ، فيحكُم فيهم بحُكمِه العَدلِ.[141]

كما قال تعالى: أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [الشورى: 53].

فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ [آل عمران: 13] ، وهذا هو الجمعُ بين هاتينِ الآيتين؛ فإنَّ كلًّا منها حقٌّ وصِدقٌ، ولله الحمدُ والمنة).

((تفسير ابن كثير)) (70/4).

(140) قال الشنقيطي: (لِيَقْضِيَ اللَّهُ بذلك أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا في عِلْمِه، وأزَلِه، مُنَفَّذًا في وَقْتِه لا محالةَ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يقضي ويُقَدِّرُ، فيُقَدِّرُ كُلَّ ما شاء ثمَّ يقضيه مُنجزًا في أوقاتِه، في أماكِنه، على هَيئَتِه وصُوَرِه التي سبَقَ بها عِلْمُه).

((العذب النمير)) (73/5).

(141) قال الشنقيطي: (وقد صار إليه هذا الأمرُ، وآل إليه، فنفذَ فيه مشيئته وقُدرته، وهيَّأ الأسبابَ، حتى هَزَمَ الكفرةَ، وقَتلَ صناديدَهم ورؤساءَهم، وكسَرَ شَوكتَهم على أيدي أوليائِه المسلمين، ونصَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه، وأيَّدَهم بنَصرِه، وهذا قضاؤُه وقَدَرُه جلَّ وعلا، واللهُ يُهيِئُ الأسبابَ، ولو شاء فعَلَ بلا سببٍ، إلَّا أنَّه اقتضت حِكمَتُه أن يُرتِّب المسبَّباتِ على أسبابٍ، ويُسبِّبَ للأشياءِ جلَّ وعلا، سبحانه وتعالى).

((العذب النمير)) (74/5).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (45–47)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)

غريب الكلمات:

رِيحُكُمْ: أي: قُوَّتُكم وغَلَبَتُكم ودَولَتُكم.

بَطَرًا: أي: دفعًا للحَقِّ، وفَخرًا وبَغيًا، وأَصلُ (بطر) يدلُّ على الشَّقِّ.

وَرِئَاءَ النَّاسِ: أي: ليَراهم النَّاسُ، ومُفاخرةً، وتكبرًا عليهم، راءَى فلانٌ يُرائِي، وفعَلَ ذلكَ رِئاءَ النَّاسِ، وهو أنْ يفعلَ شيئًا لِيَراه النَّاسُ، وأصلُه مِن الرُّؤيةِ.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ (45).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ.

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، إذا لَقِيتُم جماعةً مُحاربينَ لكم مِن أعدائِكم، فاثبُتُوا لقتالِهم، ولا تتزَعزعوا ولا تَفِرُّوا منهم.

عن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((لا تَمَنَّوا لقاءَ العَدُوِّ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا)).[142]

وعن أبي النَّضرِ، عن كتابِ رجلٍ مِن أسلمَ مِن أصحابِ النبيِّ - ﷺ -، يقال لهُ عبدُ اللهِ بنُ أبي أوفَى، فكتب إلى عمرَ بنِ عُبيدِ اللهِ، حين سار إلى الحَروريَّةِ، يخبرُه أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - كان في بعضِ أيَّامِه التي لقيَ فيها العدوَّ، ينتظرُ حتى إذا مالتِ الشمسُ قام فيهم، فقال: ((يا أيُّها الناسُ، لا تتمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، فإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظِلالِ السُّيوفِ، ثم قام النبيُّ - ﷺ - وقال: اللَّهم مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحابِ، وهازمَ الأحزابِ، اهْزِمْهم وانصُرْنَا عليهم)).[143]

---

(142) رواه البخاري (3026) ومسلم (1741).

(143) رواه البخاري (2965)، ومسلم (2509) واللفظ له.

وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ.

أي: واذكُروا اللهَ تعالى عند لقاءِ العَدُوِّ ذكرًا كثيرًا؛ بقُلوبِكم وألسِنَتِكم؛ لِتُدرِكوا ما تَطلبونَ مِن الانتصارِ على عَدُوِّكم.

وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46).

وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ.

أي: وأطيعُوا اللهَ ورَسولَه– أيُّها المؤمنونَ– بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما.

وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ.

أي: ولا تَختَلفوا فيما بينكم، فتَضعُفوا، وتجبُنوا عن قتالِ عَدُوِّكم.

كما قال تعالى: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا [آل عمران: 103].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – بعَثَه ومُعاذًا إلى اليَمنِ فقال: ((يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتطاوَعا ولا تختَلِفا)).[144]

وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ.

أي: وتخورَ قُواكم، وتنحلَّ عَزائِمُكم، فلا تَنتَصِروا بسببِ تَنازُعِكم.

(144) رواه البخاري (3038) ومسلم (1733).

وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

أي: واصبِروا عند لقاءِ عَدُوِّكم؛ إنَّ اللهَ مع الصَّابرين، بالنَّصرِ والتَّأييدِ.

وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47).

وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ.

أي: ولا تكونوا- أيُّها المؤمنونَ- مِثلَ كُفَّارِ قُريشٍ[145] الذين خرَجُوا مِن مَنازِلهم ردًّا للحَقِّ، ودفعًا له، غيرَ شاكرينَ لنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، ولِيَفتَخِروا على النَّاسِ، ويتباهَوا بجَمعِهم.[146]

---

(145) قال ابنُ عطيةَ: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ...
الآية، آية تتضمنُ الطعنَ على المشارِ إليهم، وهم كفارُ قريش، وخرَج ذلك على طريقِ النَّهيِ عن سلوكِ سبيلِهم، والإشارةُ هي إلى كفارِ قريشٍ بإجماعٍ).
((تفسير ابن عطية)) (537/2).

(146) قال ابنُ كثير: (يقول تعالى بعد أمْرِه المُؤمنينَ بالإخلاصِ في القِتالِ في سبيلِه، وكَثرةِ ذِكْرِه، ناهيًا لهم عن التشبُّه بالمُشركينَ في خُروجِهم من ديارِهم بطَرًا أي: دفعًا للحَقِّ، ورِئَاءَ النَّاسِ وهو: المُفاخَرةُ والتكَبُّرُ عليهم، كما قال أبو جهل- لَمَّا قيل له: إنَّ العيرَ قد نجا فارجِعوا- فقال: لا واللهِ، لا نرجِعُ حتى نَرِدَ ماءَ بَدرٍ، وننحرَ الجُزُرَ، ونشرَبَ الخَمرَ، وتعزِفَ علينا القِيانُ، وتتحَدَّثُ العَرَبُ بمكانِنا فيها يومَنا أبدًا).
((تفسير ابن كثير)) (72/4).

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيّ – ﷺ – قال: ((الكِبرُ: بَطَرُ الحقِّ،[147] وغَمْطُ النَّاسِ[148])).[149]

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ.

أي: وخَرَجوا لِيَمنَعُوا النَّاسَ مِن الدُّخولِ في الإسلامِ.

وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

أي: واللهُ عالِمٌ بما يعمَلُ أولئك المُشركونَ؛ مِن الرِّياءِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ، وغيرِ ذلك، لا يخفَى عليه شيءٌ من أعمالِهم الظَّاهِرة والباطنة.

(147) بَطَرُ الحقِّ: أي: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتَجبُّرًا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (90/2).
(148) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتِقارُهم والاستهانةُ بهم.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (387/3).
(149) رواه مسلم (91).

سُورةُ الأنفالِ

الآيتان (48–49)

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

غريب الكلمات:

جَارٌ لَكُمْ: أي: مُجِيرٌ لكم، ومانعُكم منهم.

تَرَاءَتِ: أي: تقابَلَت وتَلاقَت. وتراءى القَومُ: إذا رأى بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رأى): يدلُّ على نظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ.

تفسير الآيتين:

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّيَ أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48).

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ.

أي: واذكُرْ [150]– يا مُحمَّدُ– حين حسَّن إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ أعمالَهم القبيحةَ[151] في أعيُنِهم وقُلوبِهم.[152]

---

(150) قال ابن جرير: (فتأويلُ الكَلامِ: وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليمٌ في هذه الأحوالِ، وحينَ زَيَّنَ لهم الشيطانُ خُروجَهم إليكم– أيُّها المؤمنونَ– لِحَربِكم وقِتالِكم، وحسَّنَ ذلك لهم، وحَثَّهم عليكم).

((تفسير ابن جرير)) (225/11).

(151) قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بأعمالِهم هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ: أحدها: شِرْكُهم.

والثاني: مَسيرُهم إلى بدرٍ.

والثالث: قتالُهم لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((زاد المسير)) (216/2).

(152) قال الشنقيطي: (اللهُ هنا في هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ صرحَ بأنَّ الشَّيطانَ (قال) ولم يقُل: (وسوس)، فصرَّحَ بالقولِ ولم يذكُرِ الوسوسةَ).

((العذب النمير)) (99/5).

وقال ابن تيمية: (قد يتمثَّلُ الجنيُّ في صورةِ الإنسيِّ، حتى يظُنَّ الظانُّ أنَّه الإنسيُّ، وهذا كثيرٌ؛ كما تصوَّرَ لقُريشٍ في صورة سراقةَ بنِ مالكٍ بنِ جُعشُمٍ).

((النبوات)) (1053/2).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (جاء إبليسُ يومَ بَدرٍ في جُندٍ مِن الشَّياطين، معه رايتُه، والشَّيطانُ في صورةِ رَجُلٍ من بني مُدلِج، في صورةِ سُراقةَ بن مالكِ بنِ جُعْشُمٍ، فقال الشَّيطانُ للمُشركينَ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ فلمَّا اصطفَّ النَّاسُ، أخذ رسولُ اللهِ – ﷺ – قبضةً مِن التُّرابِ، فرمى بها في وُجوهِ المُشركينَ، فوَلَّوا مُدبرين. وأقبل جبريلُ إلى إبليسَ، فلما رآه، وكانت يدُه في يدِ رَجُلٍ مِن المشركينَ، انتزعَ إبليسُ يَدَه، فولَّى مُدبِرًا هو وشيعَتُه، فقال الرَّجلُ: يا سراقةُ، تزعُمُ أنَّك لنا جارٌ؟ قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكةَ).[153]

وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ: لا يُطيقُ أحدٌ من النَّاسِ اليومَ أن يتغلَّبَ عليكم؛ لِكَثرتِكم وقوَّتِكم.

---

(153) أخرجه ابن أبي حاتم في ((التفسير)) (5/1715)، وابن جرير في ((تفسيره)) (16183)، مِن طريقِ عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وعليٌّ لم يسمعْ من ابنِ عبَّاس، لكن الواسطة بينه وبين ابن عباس مجاهدٌ؛ حيث أخذ تفسيرَه منه.

قال الحافظ في ((التهذيب)): ((بعد أن عُرِفت الواسطة، وهو ثقة (يعني مجاهدًا)؛ فلا ضير في ذلك)).

وقال الإمام أحمد: ((بمصرَ صحيفةٌ في التفسير رواها علي بن أبي طلحة، لو رحل فيها رجلٌ إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا)) اهـ.

وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ.

أي: وإنِّي مُجيرٌ لكم، وحافظٌ لكم من أن يَأتيَكم أحدٌ تخشَونَه، فأنتم في ذِمَّتي وحِمايَ.[154]

وكلُّ ذلك منه، كما قال الله تعالى عنه: يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا [النساء: 120].

فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ.

أي: فلمَّا نظر كلُّ فريقٍ إلى الآخَرِ- حِزب الله، وحِزب الشَّيطان- يومَ بَدرٍ؛ رجعَ إبليسُ القَهقرى[155] هاربًا.

وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ.

أي: وقال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ عندما فرَّ وخذَلهم: إنِّي أتبرَّأُ منكم.

---

(154) قال أبو حيان: (يحتمِلُ أن يكونَ قولُه: وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ معطوفًا على لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ، ويحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، أي: لا أحَدَ يَغلِبُكم، وأنا جارٌ لكم، أُعِينُكم وأنصُرُكم بنفسي وبقَومي).

((تفسير أبي حيان)) (5/334).

وقال السعدي: (وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ مِن أن يأتِيَكم أحدٌ ممَّن تَخشَونَ غائلتَه؛ لأنَّ إبليسَ قد تبدَّى لِقُريشٍ في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكِ بنِ جُعشُمٍ المُدْلجيِّ، وكانوا يخافونَ مِن بني مُدْلجٍ؛ لعداوةٍ كانت بينهم).

((تفسير السعدي)) (ص: 323).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (2/360).

(155) القَهْقَرى: الرُّجوعُ إلى خَلْفٍ.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 261).

كما قال تعالى: كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ [الحشر: 16].

وقال سبحانه: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [إبراهيم: 22].

إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ.

أي: قال إبليسُ لكفَّارِ قُريشٍ مبيِّنًا سببَ خِذلانِه لهم، وفِرارِه عنهم: إنِّي أرى الملائكةَ الَّتي نزلَت لتأييدِ المُسلمينَ، وأنتم لا ترونَهم.

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ.

أي: إنِّي أخافُ أن يعاقِبَني اللهُ في الدُّنيا، فأهلِكَ معكم.(156)

(156) قال ابنُ عطيةَ: (قيل: إنَّ هذه مَعذِرةٌ منه كاذِبةٌ، ولم تَلْحَقْه قطُّ مَخافةٌ، قاله قتادةُ وابنُ الكلبيِّ.

وقال الزجَّاجُ وغيرُه: بل خاف ممَّا رأى مِن الأمرِ وهَوْلِه، وأنَّه يَوْمُه الذي أُنظِرَ إليه، ويُقَوِّي هذا أنَّه رأى خَرْقَ العادةِ، ونزولَ الملائكةِ للحَرْبِ).

((تفسير ابن عطية)) (2/539).

وقال ابنُ القيِّمِ: (صَدَقَ في قولِه: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وكذَبَ في قولِه: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وقيل: كان خوفُه على نفسِه أن يَهلِكَ معهم، وهذا أظهَرُ).

((زاد المعاد)) (3/162).

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: واللهُ شديدُ التَّنكيلِ بمن خالَفَه، وكفَرَ به.(157)

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49).

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ.

أي: اذكُرْ –(158) يا مُحمَّدُ– حينَ قال المُنافِقونَ الذين يُبطِنونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإسلامَ، والذين في قُلوبِهم شَكٌّ(159): غرَّ الإسلامُ هؤلاءِ المُسلمينَ وخدَعهم، حتى تكلَّفوا قتالَ قُريشٍ، وهم أكثَرُ منهم، وأشَدُّ قُوَّةً، فلا طاقةَ لهم بذلك.

---

(157) قال الواحدي: (وقوله تعالى: وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ يجوزُ أن يكونَ مُتَّصلًا بما أخبَرَ به عن إبليسَ، ويجوز أن ينقطعَ كلامُه عند قولِه: أَخَافُ اللَّهَ، فقال الله تعالى: وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

((البسيط)) (192/10).

(158) قال الشنقيطي: (قولُه: إِذْ ظرفٌ، بدلٌ مِن «إذ» قبلَه، أو منصوبٌ بـ (اذكر) مقدرًا.

اذكرْ إذ يقولُ المنافقونَ).

((العذب النمير)) (103/5).

وفي العاملِ في إِذْ أقوالٌ أخرَى، يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (335/5).

(159) قيل: المرادُ بالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ نفسُ المنافقينَ، وهو مِن عطفِ الصِّفاتِ، وهي لموصوفٍ واحدٍ، ويُؤيِّد هذا القولَ: أنَّ الله وصَف المنافقينَ بأنَّ في قلوبِهم مرضًا في قولِه: فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا [البقرة: 10] وهي في المنافقين بلا نزاع.

وقيل: هم قومٌ تكلَّموا بكلمةِ الإسلامِ في مكةَ، وأبوا أن يُهاجروا، ففي قلوبِهم إيمانٌ ضعيفٌ، جاءوا مع كفارِ قريشٍ، فلما رأوا قلةَ المسلمينَ ارتابوا وقالوا ذلك، وكان الله قلَّل المسلمينَ في أعينِ الكفارِ، والكفارَ في أعينِ المسلمينَ.

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: ومَن يُفوِّضْ أمْرَه إلى اللهِ، ويعتَمِدْ عليه، ويَثِقْ به؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّه ويحفَظُه وينصُرُه؛ لأنَّ اللهَ عزيزٌ، لا يَغلبُه ولا يقهَرُه شيءٌ، حكيمٌ في تدبيره، فلا يدخُلُه خلَلٌ، ويضَعُ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَه اللَّائِقَ به، فينصُرُ مَن يستحِقُّ النَّصرَ، ويعذِّبُ مَن يستحِقُّ العذابَ.

كما قال تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا [الطلاق: 3].

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (217/2)، ((تفسير ابن عطية)) (539/2)، ((تفسير أبي حيان)) (335/5)، ((تفسير الشوكاني)) (361/2)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (104/5).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (50–54)

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
(50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ
مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)

غريب الكلمات:

كَدَأْبِ: الدَّأْبُ: العادةُ المُستمرَّة والشَّأنُ، وأصلُ (دأب): يدلُّ على المُلازَمة والدَّوامِ.

تفسير الآيات:

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ (50).

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ.

أي: ولو عايَنْتَ- يا مُحَمَّدُ -[160] حينَ تَنزِعُ الملائكةُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أجسادِهم، وهُم يَضرِبونَ وجوهَهم وأستاهَهم؛[161] لَرَأيتَ أمرًا عَظيمًا فَظيعًا![162]

---

(160) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ في الآيةِ مُوجَّهٌ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (229/11)، ((تفسير ابن كثير)) (76/4)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (111/5).
وقال ابنُ عاشور: (ابتُدِئَ الخبرُ بـــ وَلَوْ تَرَى مُخاطبًا به غيرُ مُعَيَّنٍ، ليعُمَّ كلَّ مُخاطبٍ، أي: لو ترى أيُّها السامعُ؛ إذ ليس المقصودُ بهذا الخبرِ خُصوصَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتى يُحمَلَ الخطابُ على ظاهِرِه).
((تفسير ابن عاشور)) (40/10).
(161) الأَسْتاهُ: جمع اسْتٍ: وهو العَجُزُ، وقد يُرادُ به حَلقةُ الدُّبُرِ.
يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (266/1).
(162) قال ابن كثير: (هذا السِّياقُ- وإن كان سببُه وقعةَ بَدرٍ- ولكنَّه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافرٍ؛ ولهذا لم يخصُصْه تعالى بأهلِ بدرٍ).
((تفسير ابن كثير)) (77/4).
واختار ابنُ جريرٍ أنَّ قولَ الملائكةِ هذا للمشركينَ الذين قُتِلوا ببَدرٍ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (231/11).

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [الأنعام: 93].

وقال سبحانه: فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ [محمد: 27].

وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ.

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ: ذُوقوا عذابَ النَّارِ التي تحرِقُكم.(163)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (51).

---

(163) قال الشنقيطي: (قال بعضُ العلماء: ذَوْقُ عذابِ الحريقِ عند الاحتضارِ؛ لأنَّ المقامعَ التي يضربونَهم بها تلتهِبُ عليهم نارًا، وقال بعضُ العلماء: يُبشِّرونَهم بالحريقِ يومَ القيامةِ، ولا مانعَ مِن وقوعِ الكُلِّ).

((العذب النمير)) (114/5).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (232/11)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (217/2).

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ.

أي: ويقولُ الملائكةُ للكفَّارِ حين يَضرِبونَهم:[164] هذا الجزاءُ بسبَبِ ما عَمِلتُم من الكُفرِ والمعاصي في حياتِكم الدُّنيا، جازاكم اللهُ بها هذا الجزاءَ.[165]

وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ.

أي: وأنَّ اللهَ لا يَظلِمُ أحدًا مِن خَلقِه؛ فقد أرسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنزَلَ عليهم كُتُبَه، وأقام عليهم الحجَّةَ.[166]

---

(164) ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا مِن قَولِ الملائكةِ: ابنُ جريرٍ، والشِّنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (231/11)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (116/5).
وقال ابنُ عطية: (قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ يحتملُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ في وقتِ توفِّيَتِهم لهم على الصُّـــورة المذكورة، ويحتملُ أن يكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ تقريعًا مِن الله عزَّ وجلَّ للكافرينَ حيِّهم وميِّتِهم).
((تفسير ابن عطية)) (540/2).
(165) وقال الشنقيطي: (المراد بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ما كَسَبتُم من المعاصي والكُفرِ، سواءٌ كان الذي اجترَمَته القلوبُ، أو الألسنةُ، أو الأيدي).
((العذب النمير)) (116/5).
(166) ذهب ابنُ جرير إلى أنَّ هذه الجملةَ تُعَدُّ سببًا ثانيًا لِذَوقِهم عذابَ الحريقِ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (232/11)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (363/2).
وقال الواحدي: (الصَّـــحيحُ أنَّ قولَه: وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ابتداءُ كلامٍ لا يعودُ معناه إلى ما قبلَه مِن قَولِه: بِمَا قَدَّمَتْ؛ لأنَّ قَولَه: وَأَنَّ اللَّهَ ليس بتعليلٍ للعذابِ ولا موجِبٍ له؛ لأنَّ معناه: نَفيُ الظُّلمِ، وإيجابُ الحُكمِ بالعدل، لا أنَّه ســـببُ تَعذيبِهم، فقولُه: بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ سببٌ أوجبَ الحُكمَ بالتَّعذيبِ، وقوله تعالى: وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ نعتٌ لهذا الحُكمِ أنَّه عَدلٌ، وأنَّه ليس بجَورٍ).
((البسيط)) (199/10).

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ - ﷺ - فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى، أنَّه قال: ((يا عبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحرَّمًا، فلا تظالَموا)).[167]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52).

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: عادةُ وصَنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم وتكذيبِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ برُسُلِ اللهِ[168] مِن قَبلِهم.[169]

ثمَّ فسَّرَ تعالى دأْبَ آلِ فِرعونَ ومَن قَبلَهم، وبيَّن عادَتَهم، فقال:

---

(167) رواه مسلم (2577).

(168) قال ابنُ عطيةَ: (ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كعادةِ الله فيهم، فأضاف العادةَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليها، يضافُ المصدرُ إلى الفاعلِ وإلى المفعولِ).

((تفسير ابن عطية)) (540/2).

قال ابنُ كثيرٍ: (فعَل هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبونَ بما أُرسِلتَ به يا محمدُ، كما فعَل الأُممُ المكذِّبةُ قبلَهم، ففعَلْنا بهم ما هو دَأْبُنا، أي: عادتُنا وسُنَّتُنا في أمثالِهم مِن المكذِّبينَ مِن آلِ فرعونَ ومَن قبلَهم مِنَ الأُممِ المكذِّبةِ بالرُّسلِ).

((تفسير ابن كثير)) (78/4).

(169) قال الشنقيطي: (لم يبيِّنْ هنا مَن هؤلاء الذين مِن قبلِهم، وما ذنوبُهم التي أخَذهم الله بها، وبيَّن في مواضعَ أُخرَ أنَّ منهم قومَ نوحٍ، وقومَ هودٍ، وقومَ صالحٍ، وقومَ لوطٍ، وقومَ شعيبٍ؛ وأنَّ ذنوبَهم التي أخَذهم بها هي الكفرُ باللهِ، وتكذيبُ الرسلِ وغيرُ ذلك مِن المعاصي، كعقرِ ثمودَ للناقةِ، وكلواطِ قومِ لوطٍ، وكتطفيفِ قومِ شعيبٍ للمكيالِ والميزانِ، وغيرِ ذلك كما جاء مفصلًا في آياتٍ كثيرةٍ).

((أضواء البيان)) (197/1).

كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ.

أي: جحَد الكفَّارُ الأوَّلونَ آياتِ اللهِ التي أنزَلَها على رُسُلِه، والمُعجزاتِ التي أيَّدَهم بها، فعاقَبَهم اللهُ تعالى وأهلَكَهم؛ بسبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم.

كما قال تعالى: وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: 38-40].

إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: إنَّ اللهَ لا يَغلِبُه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ، شديدُ النَّكالِ لِمَن كفَرَ به، وكذَّب رُسلَه.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ.

أي: ذلك العذابُ الذي أهلك اللهُ به كُفَّارَ قُريشٍ ومُشركي الأُمَم الماضيةِ، إنَّما وقع عليهم لأنَّهم بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كُفرًا، واللهُ تعالى لا يُغيِّرُ نعمةً دينيَّةً أو دُنيويَّةً أنعَمَ بها على قومٍ، فيَسْلُبُها منهم، ويُحِلُّ مَحَلَّها النِّقَمَ والعُقوباتِ، إلَّا بِسَبَبِ تَغييرِهم ما بأنفُسِهم؛ بالوقوعِ في الكُفرِ، أو ارتكابِ السَّيِّئاتِ.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [الرعد: 11].

وقال سبحانه: وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [البقرة: 211].

وقال جلَّ جلالُه: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم: 7].

وقال سبحانه: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [النحل: 112-113].

وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: وذلك العذابُ الذي أهلَكَهم اللهُ تعالى به قد وقع عليهم؛ لأنَّ اللهَ سَميعٌ لكلامِ جَميعِ خَلْقِه، عليمٌ بما يُظهِرُونَه ويُسِرُّونه، لا يخفى عليه شيءٌ، فهو يجازيهم بما يستحقُّونه.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ (54).

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.

أي: عادةُ وصنيعُ هؤلاءِ المُشركينَ مِن قُريشٍ في كُفرِهم، كعادةِ وصَنيعِ قَومِ فِرعونَ والأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم.(170)

كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ.

أي: كذَّبوا بآياتِ اللهِ لَمَّا جاءَتْهم، فسُلِبوا تلك النِّعمَ التي أُسدِيَت إليهم، وأهلكناهم بسبَبِ ذُنوبِهم، وأغرَقْنا قومَ فِرعونَ في البَحرِ.

كما قال تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ [الأعراف: 136].

---

(170) قال الواحدي: (قولُه تعالى: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ يجوزُ أن تكونَ الكافُ مُتعلّقةً بمَحذوفٍ قَبلَها، كما ذَكَرْنا في الأولى، ويجوزُ أن تتعَلَّقَ بما بَعْدَها، وهو قولُه: كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يعني: أهلُ مكَّةَ كَذَّبوا بآياتِ رَبِّهم، كصَنيعِ آلِ فِرعَونَ في التكذيبِ بما جاء به موسى).
((البسيط)) (204/10).

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ [الدخان: 23 – 28].

وقال سبحانه: أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [المرسلات: 16–19].

وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ.

أي: كلُّ الذين أهلَكْناهم مِن السَّابقينَ ومِن كُفَّارِ قُريشٍ، كانوا ظالِمينَ لأنفُسِهم بكُفرِهم وتَكذيبِهم.

كما قال تعالى: أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [التوبة: 70].

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (55-59)

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)

غريب الكلمات:

تَثْقَفَنَّهُمْ: أي: تَجِدَنَّهم، وتظفَرَنَّ بهم، وأصلُ (ثقف): يدلُّ على الحِذقِ في إدراكِ الشَّيءِ، وفِعلِه.

فَشَرِّدْ بِهِمْ: أي: فنكِّلْ بهم، وافعَلْ بهم فعلًا من العقوبةِ يتفرَّقُ به مَن وراءَهم، وأصلُ (شرد): يدلُّ على تنفيرٍ وإبعادٍ.

فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ: أي: فاطرَحْ إليهم عَهدَهم، وأصلُ (نبذ) يدلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (55).

أي: إنَّ أكثَرَ الدَّوابِّ التي تدبُّ على وجهِ الأرضِ شَرًّا عند اللهِ، هم الذين كَفَروا بربِّهم، وتغلغَلَ الكُفرُ في نُفوسِهم، فهم مُستمرُّون على كُفرِهم، قد سبَقَ في علمِ الله تعالى أنَّهم لا يُؤمنونَ.(171)

كما قال تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنفال: 22، 23].

وقال سبحانه: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 44].

ثمَّ ذكَرَ تعالى صفةً أخرى من صفاتِهم، فقال:

الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ (56).

---

(171) ذكر ابنُ عطية (٤/٢١٨) أن الآية نزلت في بني قُرَيْظة بإجماع المُتَأوِّلين، ثم قال: «وهي بعد تَعُمُّ كُلَّ من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة، ومن قال: إن المراد بـ﴿الدواب﴾: الناس. فقولٌ لا يستوفي المَذَمَّة، ولا مِرْيَة في أنّ الدوابَّ تعم الناسَ وسائرَ الحيوان، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاء المذمة».

الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ.

أي: الَّذين أخذتَ عليهم العَهدَ- يا مُحَمَّدُ- وأخَذُوا عليك العَهدَ؛ بأن يُسالِموك وتُسالِمَهم، فلا يحارِبوك ولا تُحارِبَهم، ثمَّ ينقُضونَ عَهدَهم كلَّما عاهَدوك.

وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ.

أي وهؤلاءِ الكُفَّارُ الذين ينقُضونَ عَهدَهم، ليست لهم تَقوى مِن الله تعالى تَحمِلُهم على الالتزامِ بفِعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهِيه، ولا يخافونَ عند نَقضِهم للعَهدِ في كُلِّ مَرَّةٍ، أن يَحُلَّ بهم عذابُ اللهِ.[172]

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57).

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ.

---

(172) قال ابنُ عاشورٍ: (ووقوعُ فِعلِ يَتَّقُونَ في حَيِّزِ النَّفيِ، يعُمُّ سائِرَ جِنسِ الاتِّقاءِ، وهو الجِنسُ المُتعارَف منه، الذي يتهَمَّمُ به أهلُ المُروءاتِ والمُتَدَيِّنونَ، فيعُمُّ اتِّقاءَ اللهِ، وخشيةَ عِقابِه في الدُّنيا والآخرةِ، ويعُمُّ اتِّقاءَ العارِ، واتِّقاءَ الْمَسَبَّةِ، واتِّقاءَ سُوءِ السُّمعةِ، فإنَّ الخَسيسَ بالعَهدِ والغَدْرِ، مِن القبائِحِ عند جميعِ أهلِ الأحلامِ، وعند العَرَبِ أنفُسِهم؛ ولأنَّ مَن عُرِف بنَقْضِ العهدِ عَدِمَ مَن يَركَنُ إلى عَهدِه وحِلْفِه، فيبقى في عُزلةٍ مِن النَّاسِ، فهؤلاء الذين نقَضُوا عَهْدَهم، قد غلَبَهم البُغضُ في الدِّينِ، فلم يعبَؤُوا بما يَجُرُّه نقضُ العهدِ مِن الأضرارِ لهم).
((تفسير ابن عاشور)) (49/10).

أي: فإنْ تلْقَيَنَّ– يا مُحَمَّدُ– أولئك الكُفَّارَ، الذين ينقُضونَ العَهدَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ، وتَظفَرْ بهم في حالِ محُارَبتِهم، بحيثُ لا يكونُ لهم عهدٌ معك– فنكِّلْ بهم، وعاقِبْهم عقوبةً غليظةً، تكونُ عِبرةً وتشريدًا لِغَيرِهم من الأعداءِ، فيتفرَّقوا عنك، ويخافوا منك، ولا يجترِئُوا عليك بعد ذلك.(173)

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ.

أي: لعلَّ مَن خَلْفَهم مِن الكُفَّارِ الذين يعلمونَ بما فعَلْتَ بناقِضي العَهدِ، يتَّعِظونَ فيَحذَروا مِن نَقضِ ما بينك وبينهم مِن عهدٍ؛ لئلَّا يُصيبَهم ما أصاب غَيرَهم مِن ناقِضي العُهودِ.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ (58).

---

(173) قال ابن عاشـــور: (المعنى: فاجعَلْهم مَثلًا وعِبرةً لغيرِهم من الكفَّارِ، الذينَ يترقَّبونَ ماذا يجتني هؤلاءِ مِن نقضِ عهدِهم، فيفعلونَ مِثلَ فِعْلِهم؛ ولأجلِ هذا الأمرِ نكَّل النبيُّ صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم بقُريظةَ حين حاصَـرَهم، ونزلوا على حُكمِ سَـعدِ بنِ مُعاذٍ رَضِي اللهُ عنه، فحكَم بأن تُقتَلَ المقاتِلةُ وتُسبَى الذُّريَّةُ، فقتَلَهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمدينةِ، وكانوا أكثرَ مِن ثمانِمئةِ رجلٍ، وقد أمرَ اللهُ رسولَه صـلَّى اللهُ عليه وسـلَّم في هذا الأمرِ بالإغلاظِ على العدوِّ؛ لِما في ذلك مِن مصـلحةِ إرهابِ أعدائِه؛ فإنَّهم كانوا يَستضعِفونَ المسلمين، فكان في هذا الإغلاظِ على النَّاكثينَ تحريضٌ على عقوبتِهم؛ لأنَّهم استحقُّوها، وفي ذلك رحمةٌ لغيرِهم؛ لأنَّه يصدُّ أمثالَهم عن النَّكثِ، ويكفي المؤمنينَ شرَّ النَّاكثينَ الخائِنينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (50/10).

ذكر ابنُ عطية (٤/٢٢٠) أن قوله: ﴿فشـــرد بهم﴾ معناه: طَرِّد وخَوِّف، وأن المعنى: بِفِعْلٍ تفعله بهم؛ من قتْل أو نحوه، يكون تخويفًا لِمَن خلفهم.

ثم ساق قول ابن عباس، وذَكَرَ أنّ هناك من قال بأن معنى ﴿شرد بهم﴾: سَمِّع بهم.

ثم علَّق بقوله: «والمعنى متقارب؛ لأن التسميع بهم في ضمن ما فسرناه أولًا».

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء.

أي: وإمَّا تَخافَنَّ- يا مُحمَّدُ- مِن قَومٍ بينك وبينهم عَهدٌ، أن يَغدِروا بك، فينقُضُوا عَهدَهم معك، بما يظهَرُ مِن قرائِنَ تَدُلُّك على ذلك، من غيرِ تَصريحٍ منهم بالخيانةِ،[174] فاطرَحْ إليهم عَهدَهم عَلَنًا؛ حتى تستويَ أنت وهم في العِلمِ بأنَّه لا عهدَ بينَك وبينَهم، وأنَّ بعضَكم مُحارِبٌ لبعضٍ، فتبرأَ بذلك من الغَدرِ بهم.[175]

(174) قال ابنُ جرير: (فإن قال قائلٌ: وكيف يجوزُ نقضُ العهدِ بخوفِ الخيانةِ، والخوفُ ظنٌّ لا يقينٌ؟! قيل: إنَّ الأمرَ بخلافِ ما إليه ذهبْتَ، وإنَّما معناه: إذا ظهَرَت آثارُ الخيانةِ مِن عَدُوِّك، وخِفتَ وُقوعَهم بك؛ فألْقِ إليهم مَقاليدَ السَّلْمِ، وآذِنْهم بالحَربِ).

((تفسير ابن جرير)) (239/11).

وقال الرازي: (قال أهلُ العلم: آثارُ نَقضِ العَهدِ إذا ظهَرَت: فإمَّا أن تظهَرَ ظُهورًا مُحتمَلًا، أو ظهورًا مقطوعًا به؛ فإن كان الأوَّلُ وجب الإعلامُ- على ما هو مذكورٌ في هذه الآيةِ- وذلك لأنَّ قُريظةَ عاهدوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثم أجابوا أبا سُفيانَ ومَن معه مِن المُشرِكينَ إلى مُظاهَرتِهم على رَسولِ اللهِ، فحصَلَ لرسولِ اللهِ خَوفُ الغَدرِ منهم به وبأصحابِه، فهاهنا يجِبُ على الإمامِ أن ينبِذَ إليهم عُهودَهم على سواءٍ، ويُؤذِنَهم بالحرب.

أمَّا إذا ظهَرَ نَقضُ العَهدِ ظهورًا مَقطوعًا به، فهاهنا لا حاجةَ إلى نبذِ العَهدِ، كما فعلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأهلِ مكَّةَ؛ فإنَّهم لَمَّا نقَضُوا العهدَ بِقَتلِ خُزاعةَ- وهم مِن ذِمَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وصل إليهم جيشُ رسولِ اللهِ بمَرِّ الظَّهرانِ، وذلك على أربعةِ فراسِخَ من مكَّةَ).

((تفسير الرازي)) (498/15).

ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (209/10، 210)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (142/5).

(175) ذكر ابنُ عطية (٤/٢٢٠-٢٢١) أنّ أكثر المفسرين على هذا القول، ثم رجَّح كَوْن الآية فيمن يستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة، منتقدًا القول بكونها في بني قريظة، مستندًا إلى ظاهر الآية ودلالة العقل، فقال: «والذي يظهر من ألفاظ القرآن أنّ أمر بني قريظة قد انقضى عند قوله: ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَن خَلْفَهُمْ﴾، ثم ابتدأ -تبارك وتعالى- في هذه الآية بأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر، وبنو قريظة لم يكونوا في حَدِّ من تُخاف خيانته فتُرتَّب فيهم هذه الآية، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة، فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة».

عن سُلَيمِ بنِ عامرٍ، قال: ((كان بين مُعاويةَ وبين أهلِ الرُّومِ عَهدٌ، وكان يَسيرُ في بلادِهم، حتى إذا انقضَى العَهدُ أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابَّةٍ أو على فَرسٍ، وهو يقولُ: اللهُ أكبَرُ، وفاءٌ لا غدرٌ، وإذا هو عَمرُو بنُ عَبَسةَ، فسأله معاويةُ عن ذلك، فقال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ – ﷺ – يقول: مَن كان بينه وبين قَومٍ عهدٌ، فلا يَحُلَّنَّ عهدًا، ولا يَشُدَّنَّه حتى يَمضِيَ أمَدُه، أو ينبِذَ إليهم على سَواءٍ، قال: فرجَعَ معاويةُ بالنَّاسِ)).(176)

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((لكُلِّ غادرٍ لِواءٌ يومَ القيامةِ، يُرفَعُ له بِقَدرِ غَدرِه، ألا ولا غادِرَ أعظَمُ غَدرًا مِن أميرِ عامَّةٍ)).(177)

إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِين.

أي: إنَّ الله لا يُحبُّ الذين يَغدِرون بمَن عاهَدَهم وأمِنَهم، ويخونونَ في عُهودِهم وغيرِها.

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ (59).

---

(176) أخرجه أبو داود (2759)، والترمذي (1580)، والنسائي في ((الكبرى)) (8679)، وأحمد (17015)، وابن حبان في ((الصحيح)) (4871).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيح).

وصححه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (120)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (1580).

(177) رواه مسلم (1738).

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ قراءتان:

قِراءةُ وَلَا يَحْسَبَنَّ قيل: على معنى: لا يحسبنَّ النبيُّ، أو لا يحسبَنَّ أحدٌ، أو لا يحسبَنَّ الَّذين كَفروا.(178)

قِراءةُ وَلَا تَحْسِبَنَّ على أنَّ الخطابَ للنبيّ - ﷺ -، وقيل: ولا تَحْسِبَنَّ يا سامعُ.(179)

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ.

---

(178) قرأ بها حفصٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو جعفرٍ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/277).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/441، 442)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 312)، ((الكشف عن وجوه القراءات السبع)) لمكي بن أبي طالب (1/493، 494)، ((تفسير القرطبي)) (8/34).
ذكر الشنقيطيُّ أنَّ هذه القراءةَ سبعيةٌ متواترةٌ، لا وجهَ للطعنِ فيها، وذكر أن تفسيرَها مشكلٌ، قال: (لأنَّه لا يُدرَى أين مفعولَا (حَسِب)، ولا يُدرَى الفاعلُ أينَ هو؟! وللعلماءِ فيها أقوالٌ متقاربةٌ لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا).
((العذب النمير)) (5/145- 146).
(179) قرأ بها الباقون، وقرأ شعبةُ وَلَا تَحْسَبَنَّ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/236، 277).
ويُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (1/441، 442)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 312)، ((الكشف)) لمكي بن أبي طالب (1/493، 494)، ((تفسير ابن عطية)) (2/544)، ((تفسير القرطبي)) (8/34).

أي: لا يظُنَّ الذين كَفروا أنفُسَهم أفلَتُوا من أن يُظفَرَ بهم، وأنَّهم قد فاتُونا بأنفُسِهم فلا نقدِرُ عليهم.(180)

إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ.

أي: إنَّ الكافرينَ لا يُمكِنُهم الإفلاتُ مِن اللهِ تعالى في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، ولا يَقدِرونَ على الهَرَبِ منه؛ فهو قادِرٌ عليهم سبحانَه.

كما قال تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ [النور: 57].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [العنكبوت: 4].

---

(180) ذكر ابن عطية (٤/٢٢٣) قولًا بأنّ الآية نزلت فيمن أفْلَتَ من الكفار في حرب النبي ﷺ، كقريش في بدر وغيرهم، ثم علَّق بقوله: «فالمعنى: لا تظنهم ناجين، بل هم مُدْرَكُون».

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (60-63)

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

غريب الكلمات:

رِبَاطِ الْخَيْلِ: أي: ربطُها وحَبْسُها، واقتِناؤُها للجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى، وقيل: الرباط هي الخَيل التي تُربَطُ في سَبيلِ اللهِ، وقيل: الرباطُ جمعُ ربيطٍ، وفرسٌ ربيطٌ: أي: مربوطٌ في سبيلِ الله، وأصلُ المرابطةِ والرِّباطِ: أن يربطَ هؤلاء خيولَهم، ويربطَ هؤلاء خيولَهم في الثَّغرِ، كلٌّ يُعِدُّ لصاحبِه، وأصلُ (ربط): يدلُّ على شَدٍّ وثَباتٍ، والخيلُ معروفٌ، وقيل: هي في الأصلِ اسمٌ للأفراسِ والفرسانِ جميعًا.

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ: أي: مالُوا إلى الصُّلحِ؛ مِن قولهم: جَنَحتِ السَّفينةُ، أي: مالَت إلى أحَدِ جانِبَيها، وأصلُ (جنح): يدلُّ على مَيلٍ، والسَّلمُ: الصلحُ، وتركُ الحربِ.

حَسْبَكَ اللَّهُ: أي: كافيك، وأصْلُ (حسب): كفايةٌ.

وَأَلَّفَ: أي: جمَع، وأوْقَع الإلفَ بينَ القلوبِ، وأصلُ (ألف): اجتماعٌ معَ التئامٍ، ويدلُّ كذلك على انضمامِ الشيءِ إلى الشيءِ.

تفسير الآيات:

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (60).

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ.

أي: وأعِدُّوا- أيُّها المُسلِمونَ- لأعدائِكم الكُفَّارِ- الذين يَسعَونَ في هلاكِكم- كُلَّ ما أمكَنَكم أنْ تُعِدُّوه لِقتالِهم، مِن جميعِ أنواعِ الأسلحةِ، والرأيِ والتَّدبيرِ.

عن عُقبةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ -، وهو على المنبرِ، يقول: (((وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ، ألَا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ)).[181]

---

(181) رواه مسلم (1917).

وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ.

أي: وأعِدُّوا للكُفَّارِ ما تَستطيعونَ إعدادَه مِن الخَيلِ المربوطةِ، المُعَدَّةِ للقتالِ عليها في سبيلِ اللهِ تعالى.[182]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((الخَيلُ لثلاثةٍ: لِرَجلٍ أجرٌ، ولِرَجُلٍ سِترٌ، وعلى رَجُلٍ وِزرٌ؛ فأمَّا الذي له أجرٌ: فرجُلٌ رَبَطها في سبيلِ اللهِ، فأطال في مَرْجٍ[183] أو رَوضةٍ، فما أصابَت في طِيَلِها[184] ذلك من المَرجِ أو الرَّوضةِ، كانت له حَسَناتٍ، ولو أنَّها قَطَعَت طِيَلَها

---

(182) اختُلِفَ في معنى القوة ورباط الخيل، ورجَّح ابن جرير (١١/٢٤٩) العمومَ؛ لعمومِ اللفظِ، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أمر المؤمنين بإعداد الجهاد وآلة الحرب وما يتقوون به على جهاد عدوه وعدوهم من المشركين من السلاح والرمي وغير ذلك ورباط الخيل، ولا وجه لأن يقال: عُنِيَ بالقوة معنىً دون معنى من معاني القوة، وقد عَمَّ اللهُ الأمر بها.

فإن قال قائل: فإنّ رسول الله ﷺ قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله: «ألا إن القوة الرمي».

قيل له: إنّ الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخبر ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم، فإن الرمي أحد معاني القوة؛ لأنه إنما قيل في الخبر: «ألا إن القوة الرمي»، ولم يقل دون غيرها، ومن القوة أيضًا السيف والرمح والحربة، وكل ما كان معونة على قتال المشركين، كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم، هذا مع وهاء سند الخبر بذلك عن رسول الله ﷺ».

وبنحوه قال ابن عطية (٤/٢٢٦).

وقال ابنُ عطية (٤/٢٢٥-٢٢٦) في بيان المخاطَب في الآية ومَن يراد بقوله: ﴿لهم﴾: «والمخاطَبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، والضمير في قوله: ﴿لهم﴾ عائد على الذين يُنبذ إليهم العهد، أو على الذين لا يُعجِزون على تأويل من تأوَّل ذلك في الدنيا، ويحتمل أن يعيده على جميع الكفار المأمور بحربهم في ذلك الوقت ثم استمرت الآية في الأمة عامة، إذ الأمر قد توجه بحرب جميع الكفار».

(183) المَرْجُ: مَوضِعُ الكَلَأ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (74/5).

(184) طِيَلِها: هو الحَبلُ الذي تُربطُ به، ويُطَوَّلُ لها لِتَرعى، ويقالُ له (طِوَلٌ) أيضًا.

فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ،[185] كانت أرواثُها وآثارُها حسناتٍ له، ولو أنَّها مَرَّت بنهرٍ فَشَرِبتْ منه، ولم يُرِدْ أن يَسقِيَها، كان ذلك حسناتٍ له، ورجلٌ رَبَطَها فخرًا ورِئاءً، ونِواءً[186] لأهلِ الإسلامِ؛ فهي وِزرٌ على ذلك)).[187]

وعن عُروةَ البارقيِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((الخَيلُ معقودٌ في نَواصيها الخَيرُ إلى يومِ القِيامةِ: الأجرُ والمَغنَمُ)).[188]

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ.

أي: تُخيفونَ باستعدادِكم للجهادِ الذين تَعلمونَهم مِن أعداءِ اللهِ تعالى، وأعدائِكم مِن الكُفَّار.

وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ.

أي: وتُخيفونَ باستعدادِكم للجِهادِ أعداءً لكم آخرينَ، لا تَعلمونَهم، لكِنَّ اللهَ يَعلَمُهم.[189]

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (64/6).

(185) فاستنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفينِ: عَدَتْ بمَرَحٍ ونَشاطٍ، شوطًا أو شَوطينِ، فبَعُدت عن الموضِعِ الذي ربَطَها صاحِبُها فيه ترعى، ورَعَت في غَيرِه.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (410/2)، ((شرح البخاري)) للقسطلاني (74/5).

(186) نِواء: مُعاداةً.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (74/5)، ((فتح الباري)) لابن حجر (65/6).

(187) رواه البخاري (2860) واللفظ له، ومسلم (987).

(188) رواه البخاري (2852)، ومسلم (1873).

(189) قيل: المرادُ بهم: المُنافقون.

وهذا اختيارُ الرازي، وابنِ جُزي، وأبي حيانَ، وابنِ كثيرٍ.

وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ.

أي: وما تُعطُوه- أيُّها المؤمنونَ- مِن نفقاتٍ قليلةً كانت أو كثيرةً، في جهادِ أعداءِ الله، يُعطِكم اللهُ ثوابَه يومَ القيامةِ، وافيًا غيرَ مَنقوصٍ.(190)

كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 261، 262].

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (500/15)، ((تفسير ابن جزي)) (328/1)، ((تفسير أبي حيان)) (345/5)، ((تفسير ابن كثير)) (82/4، 83).

قال ابنُ كثير: (ويَشــهدُ له قولُه: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ [التوبة: 101]).

وقيل: المرادُ بـ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ: الجِنُّ، وهذا اختيارُ ابن جريرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (249/11-250).

وقيل غيرُ ذلك.

واختار القرطبيُّ التوقُّفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صــرَّحَ بأنَّ المؤمنينَ لا يعلمونَهم، وإنَّما الذي يعلَمُهم هو الله تعالى وَحدَه، ولم يَرِدْ في بيانِ ذلك حديثٌ يصِحُّ عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (38/8)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (159/5).

(190) قال ابنُ عاشور: (وتدُلُّ التَّوفِيَةُ على أنَّه يشملُ الأجرَ في الدُّنيا مع أجرِ الآخِرَةِ، ونُقِل ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (58/10).

وقال سُبحانه: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61).

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا.

أي: وإنْ مال الكفَّارُ المُحارِبونَ إلى المُصالحةِ والمُسالَمةِ فأجِبْهم- يا مُحمَّدُ- إليها.[191]

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ.

أي: صالِحْهم، وفَوِّضْ أمرَك إلى اللهِ، ولا تخَفْ ممَّا قد يدبِّرونَه مِن مَكرٍ وغَدرٍ في مُدَّةِ المُصالحةِ.

إنه هو السميع العليم.

(191) قال ابنُ كثير: (وقولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، وعطاءٍ الخراسانيّ، وعكرمةَ، والحسنِ، وقتادةَ: إنَّ هذه الآيةَ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في براءة: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...
الآية [التوبة: 29] - فيه نظرٌ؛ لأنَّ آيةَ براءة فيها الأمرُ بقِتالِهم إذا أمكَنَ ذلك، فأمَّا إذا كان العدوُّ كثيفًا، فإنَّه تجوزُ مُهادَنتُهم، كما دلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ، وكما فعل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبية، فلا منافاةَ، ولا نَسخَ، ولا تخصيصَ. واللهُ أعلم).
((تفسير ابن كثير)) (84/4).
وهذا الذي ذهب إليه ابنُ كثيرٍ- أنَّ هذه الآيةَ غيرُ منسوخةٍ- هو اختيارُ ابنِ جريرٍ والشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (253/11، 254)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (163/5).

أي: إنَّ اللهَ الذي تتوكَّلُ عليه، هو السَّميعُ لأقوالِك، وأقوالِ أعدائِك، العليمُ بما في قُلوبِكم، لا يَخفَى عليه شيءٌ، فإن كان الأعداءُ يُضمِرونَ المكرَ والغَدرَ بك- يا مُحمَّدُ- أثناء مدَّةِ المُصالحةِ؛ فهو سبُحانه لن يَفوتَه شيءٌ ممَّا يَنوُونَ ويقولونَ ويُدَبِّرون؛ لأنَّه مُطَّلِعٌ عليهم، وسيَكفيكَهم.

وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62).

وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ.

أي: وإنْ يُرِدِ الكُفَّارُ خِداعَك بطَلَبِ الصُّلحِ- يا مُحمَّدُ- بأن يُظهِروا المُسالَمةَ، ويُبطِنوا الخِيانةَ والغَدرَ؛ ليتمَكَّنوا في مدَّةِ المُصالحةِ مِن تَدبيرِ المكائِدِ؛ لِيَضُرُّوك بها؛ فإنَّ اللهَ وَحدَه كافيك، وناصِرُك عليهم.

كما قال تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [التوبة: 129].

وقال سبحانه: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [الزمر: 36].

هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.

أي: اللهُ هو الَّذي قوَّاك بنَصرِهِ إيَّاك على الكفَّارِ، وقوَّاك بأصحابِك.(192)

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63).

---

(192) عن أبي هريرة –من طريق الكلبي عن أبي صالح– قال: مكتوبٌ على العرش: لا إله إلا الله، وحدي لا شريك لي، محمدٌ عبدي ورسولي، أيَّدْتُه بعَلِيٍّ.

وذلك قوله: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾.

أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٦٠/٤٢.

قال ابن تيمية في منهاج السنة النبوية ١٩٦/٧: «إن هذا الحديث كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث».

وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال ٣٨٢/٢ (٤١٦٠) في ترجمة العباس بن بكار الضبي وقال عنه: «قال الدارقطني: كذاب.

وقال العقيلي: الغالب على حديثه.

انتقد ابنُ تيمية هذا الأثر في منهاج السنة النبوية (١٩٦/٧) بأنّه كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، وانتقد مضمونه مستندًا إلى السياق، فقال: «الوجه الثالث: أنّ الله تعالى قال: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾.

وهذا نص في أن المؤمنين عدد مؤلَّف بين قلوبهم، وعَليٌّ واحد منهم ليس له قلوب يؤلَّف بينها، والمؤمنون صيغة جمع، فهذا نص صريح لا يحتمل أنه أراد به واحدًا معيَّنًا، وكيف يجوز أن يقال: المراد بهذا عَليٌّ وحده؟!».

كذلك انتقد مضمونه مستندًا إلى وقائع البعثة وتاريخ السيرة النبوية فقال –بتصرف يسير–:«الوجه الرابع: أن يقال: من المعلوم بالضرورة والتواتر أن النبي ﷺ ما كان قيام دينه بمجرد موافقة عليٍّ، فإن عليًّا كان من أول من أسلم، فكان الإسلام ضعيفًا، فلولا أن الله هدى من هداه إلى الإيمان والهجرة والنصرة؛ لم يحصل بعليٍّ وحده شيء من التأييد، ولم يكن إيمان الناس وهجرتهم ولا نُصرتهم على يد عليٍّ، ولم يكن عليٌّ منتصبًا –لا بمكة ولا بالمدينة– للدعوة إلى الإيمان، كما كان أبو بكر منتصبًا لذلك، ولم ينقل أنه أسلم على يد عليٍّ أحد من السابقين الأولين، لا من المهاجرين ولا من الأنصار ....، ولا كان يدعو المشركين ويناظرهم، كما كان أبو بكر يدعوهم ويناظرهم، ولا كان المشركون يخافونه، كما يخافون أبا بكر وعمر، ...

الوجه الخامس: أنه لم يكن لعليٍّ في الإسلام أثر حسن إلا ولغيره من الصحابة مثله، ولبعضهم آثار أعظم من آثاره.

وهذا معلوم لمن عرف السيرة الصحيحة الثابتة بالنقل ...».

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ.

أي: واللهُ تعالى هو الذي جمعَ بين قُلوبِ أصحابِك المؤمنينَ على الحَقّ، إيمانًا به ومناصرةً له، فأصبَحوا بنِعمَتِه إخوانًا مُتحابّينَ مُؤتَلِفينَ، بعد أن كانوا أعداءً مُتنافرينَ مُتفرِّقينَ.(193)

لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ

أي: لو بَذَلْتَ- يا مُحَمَّدُ- جميعَ ما في الأرضِ؛ مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ وأموالٍ وغَيرِ ذلك؛ لِتَجمَعَ بينَ قلوبِ أصحابِك- لَما استطَعْتَ أبدًا أن تجمَعَ بينها؛ لِشدَّةِ العَداواتِ التي كانت مُستحكِمةً بينهم، ولكِنَّ اللهَ بقُدرتِه الباهرةِ- وَحْدَه- جمَعَ بينهم على الهُدى.

---

(193) قال القرطبي: (وألَّفَ بين قُلوبِهم أي: جمَعَ بين قُلوبِ الأوسِ والخَزرجِ...
وقيل: أراد التَّأليفَ بين المهاجرينَ والأنصارِ.
والمعنى مُتقارِبٌ).
((تفسير القرطبي)) (42/8).
وقال الشَّوكاني: (ظاهِرُه العمومُ، وأنَّ ائتلافَ قُلوبِ المؤمنينَ هو من أسبابِ النَّصرِ التي أيَّدَ اللهُ بها رَسولَه.
وقال جمهورُ المُفَسِّرين: المراد: الأوسُ والخزرجُ؛ فقد كان بينهم عصبيَّةٌ شديدةٌ، وحروبٌ عظيمةٌ، فألَّفَ اللهُ بين قلوبِهم بالإيمانِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
وقيل: أراد التَّأليف بين المُهاجرين والأنصار.
والحَملُ على العموم أَوْلى؛ فقد كانت العرَبُ قبل البَعثةِ المُحمديَّةِ يأكُلُ بعضُهم بعضًا، ولا يَحترِمُ مالَه ولا دَمَه، حتى جاء الإسلامُ، فصاروا يدًا واحدةً، وذهب ما كان بينهم من العصبيَّة).
((تفسير الشوكاني)) (368/2).
ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (548/2).

كما قال تعالى: وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [آل عمران: 103].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – لَمَّا فتح حُنينًا قسَمَ الغَنائِمَ، فأعطى المؤلَّفةَ قُلوبَهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحبُّونَ أن يُصيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ الله – ﷺ – فخطَبَهم، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشَرَ الأنصارِ، ألم أجِدْكم ضُلَّالًا فهداكم اللهُ بي؟ وعالةً فأغناكم اللهُ بي؟ ومُتَفرِّقينَ فجَمَعَكم الله بي؟ ويقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ، فقال: ألا تجيبوني؟! فقالوا: اللهُ ورَسولُه أمَنُّ، فقال: أمَا إنَّكم لو شِئتُم أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا– لأشياءَ عَدَّدَها–، فقال: ألَا تَرضَونَ أن يذهَبَ النَّاسُ بالشَّاءِ والإبِلِ، وتذهبونَ برَسولِ اللهِ إلى رحالِكم؟! الأنصارُ شِعارٌ(194) والنَّاسُ دثارٌ(195) ولولا الهجرةُ لكُنتُ امرأً مِن الأنصارِ، ولو سلَكَ النَّاسُ واديًا وشِعبًا، لسلَكْتُ واديَ الأنصارِ وشِعبَهم، إنَّكم ستَلْقَونَ بعدي أثَرةً،(196) فاصبِرُوا حتى تلقَوني على الحَوضِ)).(197)

---

(194) الشِّعَارُ: هو الثَّوبُ الذي يلي شَعْرَ البَدَنِ.
والمعنى أنَّ الأنصارَ أقرَبُ النَّاسِ إليه– صلى الله عليه وسلم– مَرتبةً وأولاهم منه مَنزِلةً.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (9/4009).
(195) الدِّثارُ: هو الثَّوبُ الذي فَوقَ الشِّعارِ.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (9/4009).
(196) أثَرَةً: أي: استِئثارًا؛ يستأثِرُ عليكم أُمَراؤُكم بأمورِ الدُّنيا مِنَ المَغانِمِ والفَيءِ ونَحوِهما.
يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (9/4009).
(197) رواه البخاري (4330)، ومسلم (1061)، واللفظ له.

إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ الذي ألَّف بقُدرتِه بين قلوبِ المُؤمنينَ، عزيزٌ لا يقهَرُه ولا يَغلِبُه شيءٌ، ولا يَرُدُّ قَضاءَه أحدٌ، ومن ذلك قَهرُه للكُفَّارِ الجانحينَ للسَّلمِ، الذين يُريدونَ بذلك الخِداعَ، حكيمٌ في أفعالِه وشَرعِه وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك تأليفُه قلوبَ المؤمنينَ؛ لِيَجتمِعوا على نُصرةِ الحقِّ.

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (64–66)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

غريب الكلمات:

حَرِّضِ: أي: حُضَّ، وحُثَّ، والتَّحريضُ: الحثُّ على الشَّيءِ، وتَسهيلُ الخَطبِ فيه؛ كأنَّه في الأصلِ إزالةُ الحَرَضِ: وهو ما لا يُعتَدُّ به، ولا خيرَ فيه.

يَفْقَهُونَ: أي: يَفْهَمونَ حَقَّ الفَهْمِ، والفِقهُ: هو التوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ. وأصلُ (فقه) يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64).

أي: يا أيُّها النبيُّ، اللهُ- وَحدَه- هو كافيك، وكافي مَنِ اتَّبَعَك مِن المؤمنينَ، ما يُهِمُّكم من أمورِ الدِّينِ والدُّنيا والآخرةِ، ومن ذلك تأييدُكم ونَصرُكم على أعدائِكم، وإن كَثُروا، وقَلَّ عَدَدُكم.

كما قال تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [التوبة: 129].

وقال سُبحانه: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ [الزمر: 36].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ، قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حين ألقِيَ في النَّارِ، وقالها محمَّدٌ - ﷺ - حين قالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: 173])).[198]

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (65).

---

(198) رواه البخاري (4563).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ.

أي: يا أيُّها النبيُّ، حُثَّ أتباعَك المؤمنينَ حثًّا شديدًا على قتالِ الأعداءِ؛ ففي قتالِهم خيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ.

كما قال تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [البقرة: 216].

وعن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((انطلَقَ رسولُ اللهِ – ﷺ – وأصحابُه حتى سبَقُوا المُشرِكِينَ إلى بدرٍ، وجاء المُشرِكونَ، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: قُوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السَّمَواتُ والأرضُ، يقولُ عُميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسولَ اللهِ، جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ؟! قال: نعم، قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ما يَحمِلُك على قَولِك: بَخٍ بَخٍ؟! قال: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، إلَّا رَجاءَةَ[199] أن أكونَ مِن أهْلِها، قال: فإنّك مِن أهلِها، فأخرَجَ تَمَراتٍ مِن قَرَنِه،[200] فجعَلَ يأكُلُ مِنهنَّ، ثم قال: لَئِنْ أنا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَراتي هذه، إنَّها لحياةٌ طَويلةٌ. قال: فرمى بما كان معه مِن التَّمرِ، ثم قاتَلَهم حتى قُتِلَ)).[201]

(199) (رجاءة) بالمدِّ ونصبِ التاءِ، ومعناه: واللهِ ما فعلتُه لشيءٍ إلا لرجاءِ أن أكونَ مِن أهلِها.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (45/13).
(200) قَرَنه: أي: جَعبة السِّهام، تُصنعُ مِن جلدٍ.
يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قرقول (347/5).
(201) رواه مسلم (1901).

إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مَنسوخةٌ،[202] وناسِخُها الآيةُ التي بَعدَها، وهي قَولُه تعالى: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ.[203]

---

(202) رجَّح ابنُ جرير (١١/ ٢٦٨ – ٢٦٩) القول بالنسخ مستندًا إلى دلالة العقل، ووجود التعارض، فقال: «وهذه الآية، وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر، يدل على ذلك قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾، فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل، ولو كان ثبوت العشرة منهم للمائة من عدوهم كان غير فرض عليهم قبل التخفيف وكان ندْبا لم يكن للتخفيف وجه؛ لأن التخفيف إنما هو ترخيص في ترك الواحد من المسلمين الثبوت للعشرة من العدو، وإذا لم يكن التشديد قد كان له متقدمًا لم يكن للترخيص وجه؛ إذ كان المفهوم من الترخيص إنما هو بعد التشديد.
وإذ كان ذلك كذلك فمعلوم أنّ حكم قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا﴾ ناسخ لحكم قوله: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا﴾، وقد بَيَّنّا أنّ كل خبر من الله وعَدَ فيه عباده على عملٍ ثوابًا وجزاءً، وعلى تركه عقابًا وعذابًا، وإن لم يكن خارجًا ظاهره مخرج الأمر، ففي معنى الأمر».
وبنحوه قال ابنُ عطية (٤/ ٢٣٦)، وذكر أنّه رُوِي عن ابن عباس أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة ندْب المؤمنين إليه، ثم حُطَّ ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثنين، وأن كثيرًا من المفسرين قال: وهذا تخفيف لا نسخ؛ إذ لم يستقر لفرض العَشرة حكم شرعي، وذكر قولًا لمكي بأن قوله: ﴿الآن خفف ...﴾ إنما هو كتخفيف الفطر في السفر، وهو لو صام لم يأثم وأجزأه.
ثم انتقد القول بعدم النسخ مستندًا إلى النظائر، فقال: «وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحًا من أن يقال: نُسِخ، واعْتبر ذلك في صدقة النّجوى، وهذه الآية التخفيف فيها نسخ للثبوت للعشرة، وسواء كان الثبوت للعشرة فرضًا أو ندبًا هو حكم شرعي على كل حال، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أنّ الحكم إذا نسخ بعضه أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أن يقال له نسخ؛ لأنه حينئذ ليس بالأول، وهو غيره، وذكر في ذلك خلافًا.
والذي يظهر في ذلك أن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأول مقيدًا لا بإطلاق، واعتبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس».

(203) قال ابن كثير: (عن ابنِ عبّاسٍ، قال: لَمّا نزلَت هذه الآيةُ ثَقُلت على المسلمينَ، وأعظَموا أن يُقاتِلَ عِشرونَ مِئَتينِ، ومئةٌ ألفًا، فخَفَّفَ اللهُ عنهم، فنسَخَها بالآيةِ الأخرى، فقال: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا...

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (لَمَّا نزَلَت: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ شقَّ ذلك على المُسلمين، حين فُرِضَ عليهم ألَّا يفِرَّ واحدٌ مِن عَشرةٍ، فجاء التَّخفيفُ فقال: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ فلمَّا خفَّفَ اللهُ عنهم من العِدَّةِ، نقصَ مِن الصَّبرِ بِقَدرِ ما خَفَّف عنهم).[204]

إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ.

أي: إن يكُنْ منكم– أيُّها المؤمنونَ– عِشرونَ رَجُلًا، صابرونَ عندَ لِقاءِ العَدُوِّ، محتسِبونَ، ثابِتونَ، يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ من عدوِّهم ويقهرُوهم، وإن يكُن منكم– أيُّها المؤمنونَ– مِئةٌ صابرةٌ محتسبةٌ ثابتةٌ يغلبوا ألفًا مِن الكافرينَ.[205]

الآية، فكانوا إذا كانوا على الشَّطرِ مِن عَدُوٍّ لهم لم ينبَغِ لهم أن يَفِرُّوا مِن عَدُوِّهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجِبْ عليهم قتالُهم، وجاز لهم أن يتحَوَّزوا عنهم...

قال ابنُ أبي حاتم: ورُوِيَ عن مجاهد، وعطاء، وعكرمة، والحسن، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والضحاك نحوُ ذلك).

((تفسير ابن كثير)) (4/87).

وممَّن ذهَب مِن المفسِّرين إلى أنَّها منسوخةٌ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (11/269)، ((تفسير ابن عطية)) (2/550)، ((تفسير ابن كثير)) (4/87)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (2/448).

(204) رواه البخاري (4653).

(205) وهذه الآيةُ وإن ورَدت بصيغةِ الخبرِ إلَّا أنَّ المرادَ بها الأمرُ بالصبرِ، وثباتِ الجماعةِ منهم لعشرةِ أمثالِهم، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ، والبغويُّ، والرازي، وابنُ كثيرٍ، والسَّعديُّ.

يُنظر: المصادر السابقة.

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ.

أي: يَغلِبُ المؤمنونَ الصَّابرونَ الكافرينَ الأكثَرَ منهم عددًا؛ بسَبَبِ أنَّ الكافرينَ قَومٌ لا يفهمونَ عن الله شيئًا، ولا فقهَ عندَهم، ولا يرجونَ ثوابَ الله في قتالِهم، فلا علمَ عندهم بما أعدَّ الله للمجاهدينَ في سبيلِه؛ لذا لا يَثبُتون في القتالِ خَشيةَ أن يُقتَلوا.

الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66).

الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا.

أي: الآنَ[206] خفَّفَ اللهُ عنكم- أيُّها المؤمنونَ- ما أوجبَه عليكم مِن مُصابَرةِ العِشرينَ المِئَتينِ، ومُصابرةِ المِئةِ الألفَ، وقد عَلِمَ اللهُ من قبلُ أنَّ فيكم مَن يَضعُفُ بَدَنُه عن قتالِ عَشرةٍ مِن الكافرينَ.

فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ.

قال ابنُ الجوزيّ: (ومعنى الكلامِ: إن يكُن منكم عِشرونَ صابرونَ يَثبُتونَ عند اللِّقاءِ، يَغلِبوا مِئَتين؛ لأنَّ المؤمنينَ يَحتَسِبونَ أفعالَهم، وأهل الشِّرك يُقاتِلون على غير احتسابٍ، ولا طلبِ ثَوابٍ).

((زاد المسير)) (223/2).

(206) قال ابنُ عاشور: (والوقتُ المُستحضَرُ بِقَوله: الْآنَ هو زمنُ نُزولِها...

فمعنى قَولِه: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ أنَّ التَّخفيفَ المُناسِبَ لِيُسرِ هذا الدِّينِ رُوعِيَ في هذا الوقتِ، ولم يُراعَ قَبلَه لمانعٍ منَعَ من مُراعاتِه، فرجَحَ إصلاحُ مجموعِهم).

((تفسير ابن عاشور)) (70/10).

أي: فإنْ يكُن منكم– أيُّها المؤمنونَ– مِئةٌ، صابرةٌ، ثابتةٌ عندَ القتالِ، يغلبوا مِئَتين من الكافرينَ، وإن يكُنْ منكم ألفٌ صابرونَ كذلك، يغلِبوا ألفينِ مِن الكافرينَ بمعونةِ اللهِ تعالى لهم.

وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ.

أي: واللهُ يُؤيِّدُ الصَّابرينَ، وينصُرُهم ويُعينُهم ويُوفِّقُهم.

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (67–71)

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

غريب الكلمات:

يُثْخِنَ: أي: يُبالِغَ فِي قتلِ المُشـرِكينَ ويَقهَرَهم، والإثْخانُ في كلِّ شَـيءٍ: قُوَّتُه وشِـدَّتُه. وأصـلُ (ثخن): يدلُّ على رزانةِ الشَّـيءِ في ثِقلٍ؛ فإثخانُ القَتلِ: الشِّـدَّةُ والمُبالغةُ فيه حتى يُترَكَ القَتيلُ مُثقَلًا، لا حِراكَ به.

تفسير الآيات:

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67).

سَببُ النُّزولِ:

عن أبي زُمَيْلٍ سِماكٍ الحنفيّ، قال: حدَّثني عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ قال: حدَّثني عُمَرُ بنُ الخطَّابِ قال: ((لَمَّا كان يومُ بَدرٍ نظر رسولُ اللهِ – ﷺ – إلى المُشركينَ وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثُمِئةٍ وتِسعةَ عَشرَ رَجلًا، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ – ﷺ – القِبلةَ، ثمَّ مدَّ يَدَيه، فجعَلَ يهتِفُ بِرَبّه: اللهُمَّ أنجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهُمَّ آتِ ما وعَدْتَني، اللهمَّ إن تَهْلِكْ هذه العِصابةُ مِن أهلِ الإسلامِ، لا تُعبَدْ في الأرضِ، فما زالَ يهتِفُ بربِّه، مادًّا يَدَيه مُستقبِلَ القِبلةِ، حتى سقَطَ رِداؤُه عن مَنكِبَيه، فأتاه أبو بكرٍ، فأخذَ رداءَه، فألقاه على مَنكِبَيه، ثم التَزَمه مِن ورائِه، وقال: يا نبيَّ الله، كفاك مُناشَدتُك ربَّك؛ فإنَّه سيُنجِزُ لك ما وعَدَك! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ [الأنفال: 9] فأمدَّه اللهُ بالملائكةِ، قال أبو زُمَيلٍ: فحدَّثني ابنُ عبَّاسٍ قال: بينما رجلٌ مِن المُسلمين يومَئذٍ يَشتَدُّ في أثَرِ رجلٍ مِن المُشركينَ أمامَه، إذ سَمِعَ ضَربةً بالسَّوطِ فوقَه، وصَوتَ الفارسِ يقولُ: أقدِمْ حَيزومُ، فنظَرَ إلى المُشركِ أمامَه فخرَّ مُستلقِيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ[207] أنفُه، وشُقَّ

(207) الخطمُ: الأثرُ على الأنفِ.

وجهُه، كضربةِ السَّوطِ، فاخضَرَّ ذلك أجمَعُ(208)! فجاء الأنصاريُّ فحَدَّث بذلك رسولَ الله – ﷺ –، فقال: صَدَقْتَ، ذلك من مَدَدِ السَّماءِ الثَّالثةِ، فقَتَلوا يومَئذٍ سَبعينَ، وأَسَرُوا سبعينَ، قال أبو زُمَيلٍ: قال ابنُ عبَّاسٍ: فلمَّا أسَرُوا الأُسارى، قال رسولُ الله – ﷺ – لأبي بكرٍ وعُمَرَ: ما تَرَونَ في هؤلاءِ الأُسارى؟ فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله، هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يَهدِيَهم للإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: ما ترى يا ابنَ الخطَّابِ؟ قلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فنضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا مِن عَقيلٍ، فيضرِبَ عُنُقَه، وتمكِّنِّي من فلانٍ– نَسيبًا لِعُمَرَ– فأضرِبَ عُنقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ وصَناديدُها، فهَوِيَ رسولُ اللهِ – ﷺ – ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ جِئتُ، فإذا رسولُ الله – ﷺ – وأبو بكرٍ قاعِدَينِ يَبكيانِ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني من أيِّ شَيءٍ تبكي أنت وصاحِبُك؟! فإن وَجَدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجِدْ بُكاءً تباكَيتُ لِبُكائِكما، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ –: أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك مِن أخْذِهم الفِداءَ، لقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى مِن هذه الشَّجرةِ– شَجرةٍ قريبةٍ مِن نبيِّ اللهِ – ﷺ – وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ما

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (86/12).

(208) فاخضرَّ ذلك أجمعُ: أي: صار موضعُ الضربِ كلُّه أخضرَ أو أسودَ؛ فإنَّ الخضرةَ قد تُستعملُ بمعنَى السوادِ، كعكسِه؛ للمبالغةِ.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا القاري (3782/9).

كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْــرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ إلى قَوْلِه: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم)).[209]

وعن ابنِ عُمَرَ رضـــي الله عنهما، قال: قال عُمَرُ: ((وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بَدرٍ)).[210]

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ.

أي: ما ينبغي لنبيٍّ أن يـــأسِرَ أحدًا مِن الكُفَّارِ المُحارِبين، فيحبِسَهم لأخْذِ فداءٍ ماليٍّ منهم، في مُقابِلِ إطلاقِ سَــراحِهم، ما ينبغي أن يفعَلَ ذلك قبل أن يُبالِغَ في قَتلِهم ويَغلِبَهم، ويتمَكَّنَ في الأرضِ.[211]

---

(209) رواه مسلم (1763).

(210) رواه مسلم (2399).

(211) قال القرطبي: (هذه الآيةُ نزلتْ يومَ بدرٍ، عتابًا مِن الله عزَّ وجلَّ لأصــحابِ نبيِّه صــلَّى الله عليه وســلَّم، والمعنَى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعلَ الذي أوجَب أن يكونَ للنبيِّ صــلَّى الله عليه وســلَّم أســرَى قبلَ الإثخانِ، ولهم هذا الإخبارُ بقولِه: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا، والنبيُّ صــلَّى الله عليه وســلَّم لم يأمرْ باســتبقاءِ الرِّجالِ وقتَ الحربِ، ولا أراد قطُّ عرضَ الدُّنيا، وإنَّما فعلَه جمهورُ مباشري الحربِ، فالتوبيخُ والعتابُ إنَّما كان متوجهًا بسببِ مَن أشار على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأخذِ الفديةِ، هذا قولُ أكثرِ المفسِّـرين، وهو الذي لا يصـحُّ غيرُه، وجاء ذكرُ النبيِّ صـلَّى الله عليه وسـلَّم في الآيةِ حينَ لم ينهَ عنه حينَ رآه مِن العريشِ، وإذ كره سـعدُ بنُ معاذٍ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وعبد الله بنُ رواحةَ، ولكنَّه عليه السـلامُ شـغلَه بغتُ الأمرِ، ونزولُ النَّصر، فترَك النهيَ عن الاستبقاءِ، ولذلك بكَى هو وأبو بكرٍ حينَ نزَلت الآياتُ.

والله أعلم.

((تفسير القرطبي)) (45/8).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (551/2)، ((تفسير ابن عاشور)) (74/10).

كما قال تعالى: فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا [محمد: 4].

تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ.

أي: تُريدونَ- أيُّها المؤمنونَ- نَيلَ مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلةِ بأسْـــرِ الكُفَّارِ المُنهَزِمينَ يومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يُريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ بإثخانِهم؛ إعزازًا لِدينِه، ونُصـــرةً لِعبادِه، وإعلاءً لكَلِمتِه سُبحانَه وتعالى.(212)

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عزيزٌ لا يُغلَب ولا يُقهَرُ، فإنْ أرَدْتُم بجهادِكم الآخرةَ، نَصَـــرَكم اللهُ على عَدُوِّكم، وهو حكيمٌ في تدبيرِ شَـؤونِ خَلْقِه ومَصـالِحِهم، ولو شــاء أن ينتَصِـرَ مِن الكُفَّارِ دون قتالٍ لَفَعَل، لكِنَّ حِكمَتَه تقتضي أنْ يبتلِيَ بَعضَكم ببعضٍ.

---

(212) قال الرازي: (أجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن عَرَضِ الدُّنيا هاهنا، هو أخْذُ الفِداءِ). ((تفسير الرازي)) (15/509).

لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68).

أي: لولا قضـاءٌ من الله سـبَقَ لكم- يا أهلَ بَدرٍ- في اللَّوحِ المَحفوظِ بأنَّ اللهَ مُحِلٌّ لكم الغَنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ مِن الكُفَّارِ، وبأنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلَّا بعد قيام الحُجَّةِ عليه، وأنَّه لا يعذِّبُ أحدًا شَــهِدَ بدرًا مع رسولِ اللهِ - ﷺ - لَنالَكم بسبَبِ أخْذِكم الفِداءَ مِن كفَّارِ قُريشٍ، عذابٌ عظيمٌ.(213)

فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (69).

لَمَّا تضَــمَّنَ قَولُه تعالى: لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَــبَقَ امتنانًا عليهم بأنَّه صـرَفَ عنهم العذابَ؛ فَرَّعَ على الامتنانِ الإذنَ لهم بأن ينتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مصـالِحِهم، ويتوسَّعُوا به في نَفَقاتِهم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهم استغنَوْا به مع الأمْنِ مِن ضُرِّ العَدُوِّ بفَضْلِ اللهِ، فتلك نِعمةٌ لم يَشُبْها أذًى.

(213) اختلف في المراد بالكتاب السابق على أقوال: الأول: هو مغفرة الله لأهل بدر.
والثاني: ما قضاه الله في الأَزَل من إحلال الغنائم.
والثالث: قضاء الله ألا يعاقب أحدًا بذنب أتاه على جهالة.
ورجَّح ابن جرير (١١/ ٢٨٢ - ٢٨٣) العمومَ؛ لعموم اللفظِ، فقال: «وذلك أنّ قوله: ﴿لولا كتاب من الله سـبق﴾ خبرٌ عامٌّ غيرُ محصور على معنى دون معنى، وكل هذه المعاني التي ذُكرت مما قد سبق في كتاب الله أنه لا يؤاخذ بشيء منها هذه الأمة، وذلك ما عملوا من عمل بجهالة، وإحلال الغنيمة والمغفرة لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم، وإذ كان ذلك كذلك فلا وجه لأن يخص من ذلك معنى دون معنى، وقد عَمَّ الله الخبرَ بكل ذلك بغير دلالة توجب صحة القول بخصوصه».
وبنحوه قال ابنُ القيم (١/ ٤٥٠).
وانتقد ابنُ عطية (٤/ ٢٤٢) القول الأخير الذي قاله مجاهد من طريق ابن جريج لمخالفته أدلّة الشرع بقوله: «وهو قول ضعيف، تعارضه مواضع من الشريعة».

فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا.

أي: قد أحلَلْتُ لكم- أيُّها المؤمنونَ- أخْذَ الغَنائِمِ والفِديةِ مِن الكُفَّارِ، فكُلوا ممَّا غَنِمتُم مِن أموالِهم حالَ كَونِه حلالًا قد أحلَّه اللهُ لكم، هنيئًا مُستلذًّا، لا خُبثَ فيه.[214]

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال: ((لم تَحِلَّ الغَنائِمُ لأحدٍ مِن قَبلِنا؛ ذلك بأنَّ اللهَ تبارك وتعالى رأى ضَعْفَنا وعَجْزَنا، فطَيَّبَها لنا)).[215]

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((أُعطيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ مِن الأنبياءِ قَبلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، وأيُّما رَجُلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ، وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشَّفاعةَ)).[216]

وَاتَّقُواْ اللّهَ.

---

(214) قال أبو حيان: (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا أي: ممَّا [غَنِمتُموه]، ومنه ما حصل بالفِداءِ الذي أقَرَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...

وليس هذا الأمرُ مُنشِئًا لإباحةِ الغَنائِمِ؛ إذ قد سبق تحليلُها قبل يومِ بَدرٍ، ولكنَّه أمرٌ يُفيدُ التَّوكيدَ، واندراجَ مالِ الفداءِ في عُمومِ ما غَنِمتم؛ إذ كان قد وقع العِتابُ في المَيلِ للفِداءِ، ثمَّ أقرَّه الرَّسولُ).

((تفسير أبي حيان)) (354/5).

(215) رواه البخاري (3124)، ومسلم (1747)، واللفظ له.

(216) رواه البخاري (438) واللفظ له، ومسلم (521).

أي: واتَّقوا اللهَ– أيُّها المؤمنونَ– بِفعلِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نَهى، فلا تَفعَلوا في دينِكم شـيئًا لم يأذَنِ اللهُ لكم به.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: إنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ المُؤمنينَ، فيَستُرُها عليهم، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ولِهذا لم يُعاقِبْهم على أخذِهم الفداءَ، وهو رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه أن أحَلَّ لهم الغنائِمَ، وأخْذَ الفِداءِ.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (70).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ.[217]

---

(217) قال الرازي: (واختلف المُفسِّرون في أنَّ الآيةَ نازلةٌ في العبَّاسِ خاصَّةً، أو في جُملةِ الأُسارى.
قال قومٌ: إنَّها في العبَّاسِ خاصَّةً، وقال آخرون: إنَّها نزلَتْ في الكُلِّ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ ظاهِرَ الآيةِ يقتضي العُمومَ مِن ستَّةِ أوجُهْ... فما الموجِبُ للتَّخصيصِ؟! أقصى ما في البابِ أنْ يُقالَ: سَبَبُ نزولِ الآيةِ هو العبَّاسُ، إلَّا أنَّ العِبرةَ بِعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَب).
((تفسير الرازي)) (513/15).
وممَّن رأى عمومَ نُزولِ الآيةِ في أُسارى بدر: الشنقيطي.
يُنظر: ((العذب النمير)) (182/5، 183).
وجَعَلَها السَّعديُّ في أُسارى بدرٍ الذينَ ادَّعَوا الإسلامَ لَمَّا طُلِبَ منهم الفِداءُ.
يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 327).

أي: يا أيُّها النبيُّ، قلْ لِمَن أسَـرْتُموهم في غَزوةِ بَدرٍ، وأخَذْتُم منهم الفِديةَ لِإطلاقِهم: إنْ يَعلَمِ اللهُ في قُلوبِكم إسلامًا وإيمانًا صحيحًا، يُعطِكم في الدُّنيا مالًا، وفي الآخرةِ ثَوابًا أفضَلَ ممَّا أخَذَه المسلمونَ منكم.

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رِجالًا من الأنصارِ استَأذَنوا رسولَ اللهِ – ﷺ –، فقالوا: ائذَنْ لنا فلْنَترُكْ لابنِ أُختِنا عبَّاسٍ فِداءَهُ، قال: واللهِ لا تَذَرونَ منهُ دِرهَمًا)).[218]

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

أي: ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم فيَســـتُرْها عليكم، ولا يؤاخِذْكم بها، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه التَّائبينَ، رحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه ألَّا يُعاقِبَهم بعد تَوبتِهم.

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71).

(218) رواه البخاري (4018).

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ.

أي: وإن يُرِدْ هؤلاءِ الأســـرَى الغَدرَ بك، وخِداعَك- يا مُحمَّدُ- بإظهارِهم أقوالًا خلافَ ما يُبطِنونَ،[219] فيَرجِعوا إلى إظهارِ الكُفرِ، وقِتالِ المُسلمينَ، والإعانةِ عليه؛ فقد كَفَروا باللهِ وعَصَوه مِن قَبلِ يومِ بَدرٍ، فأقدَرَ اللهُ المؤمنينَ عليهم، فأسَرُوهم.[220]

وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: واللهُ عليمٌ بكُلِّ شَــيءٍ، ومن ذلك ما يُضــمِرُونَه في قُلوبِهم من إخلاصٍ أو خيانةٍ، حكيمٌ في جَميعِ أقوالِه وأفعالِه، يَضعُ الأشياءَ في مَواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك مُجازاةُ الخائِنينَ.

---

(219) قال الشنقيطي: (كانوا يَقولونَ: آمَنَّا بك، وشَهِدْنا أنَّك رَسولُ اللهِ، وواللهِ لَنَنصَحَنَّ لك على قَومِك، ولنكونَنَّ معَك). ((العذب النمير)) (5/195).

(220) قال ابن عاشــور: (فكَمُلَ ذلك الإذنُ والتَّطييبُ بالتهنئةِ والطَّمأنة بأنْ ضَــمِنَ لهم- إنْ خانَهم الأسـرى بعد رُجوعِهم إلى قَومِهم، ونَكثوا عَهدَهم، وعادوا إلى القتالِ- بأنَّ اللهَ يُمكِّنُ المسلمينَ منهم مرَّةً أخرى، كما أمكَنَهم منهم في هذه المرَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (10/81).

سُورةُ الأنفالِ

الآيات (72–75)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ
اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(72) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَالَّذِينَ
آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (74) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(75))

غريب الكلمات:

مِيثَاقٌ: الميثاقُ: العقدُ المؤكَّدُ بيمينٍ، أو العهدُ المُحكَم، وأصل (وثق): عقدٌ وإحكامٌ.

آوَوْا: أي: ضَـــمُّوا رســـولَ اللهِ - ﷺ - والمُهاجرينَ إليهم، وأَعْطَوهم المَأوى. والمَأوى: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى): يدلُّ على التَّجمُّعِ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72).

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مُحكَمةٌ.(221)

وقيل: بل هيَ مَنسوخةٌ بِقولِه تعالى في سورة الأحزاب: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا [الأحزاب: 6]، أو قَولِه في آخِرِ سُورةِ الأنفالِ: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[الأنفال: 75].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّه قال في قولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

---

(221) وهو قولُ ابنِ جريرٍ، وقوَّاه الرَّازي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (300/11)، ((تفسير الرازي)) (516/15، 517).

يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا قال: (فكانَ الأعرابيُّ لا يرثُ المهاجرَ، ولا يرثُهُ المهاجرُ، فنسخَتْها، فقالَ: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ).(222)

وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا، قال: (كان المُهاجرونَ حين قَدِموا المدينةَ يَرِثُ الأنصاريُّ المُهاجريَّ دونَ ذَوي رَحِمِه؛ لِلأُخوَّةِ التي آخى النَّبيُّ - ﷺ - بينهم).(223)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ.

أي: إنَّ المُهاجرينَ الذينَ آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وهجَروا قومَهم، وتَرَكوا دُورَهم، وخَرَجوا من أوطانِهم، وأنفَقوا أموالَهم؛ لِنُصرة دينِ اللهِ، وبالَغوا في إتعابِ أنفُسِهم وبَذلِها في حَربِ الكافرينِ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ الله تعالى.

وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ.

أي: والأنصارَ أهلَ المدينةِ، الذينَ ضمُّوا إليهم النبيَّ - ﷺ -، وأصحابَه المهاجرين، فأسكَنُوهم منازِلَهم، وواسَوْهم بأموالِهم، ونَصَرُوهم على أعدائِهم.

أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ.

قيل: معناها: يَرِثُ بَعضُهم بعضًا دون قَراباتِهم مِن المُشركينَ، على القولِ بأنَّها منسوخةٌ.

---

(222) أخرجه أبو داود (2924)، والقاسم بن سَلَّام في ((الأموال)) (527)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (12528)، والضياء في ((المختارة)) (357).

قال الألباني في ((صحيح أبي داود)) (2924): (حسنٌ صحيحٌ).

(223) رواه البخاري (6747).

وقيل: المعنى: أولئك المُهاجِرونَ والأنصارُ، بعضُهم أنصارُ بعضٍ، وأعوانٌ على مَن سِواهم مِن المُشركينَ، وذلك على القولِ بأنَّها محكمة.

كما قال تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [التوبة: 71].

وعن أبي موسى الأشعريّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيّ – ﷺ –، قال: ((المؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشبَّك بينَ أصابِعِه)).(224)

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((مثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم، مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)).(225)

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ.

أي: والمُؤمنونَ الذين لم يُفارِقُوا بعدُ بلادَ الكُفرِ إلى بلادِ الإسلامِ؛ فَلَستُم- أيُّها المؤمنونَ- مكلَّفينَ بِحمايتِهم ونُصرتِهم، ولا إرْثَ بينكم، وليسَ لهم في المغانِمِ نَصيبٌ، حتى يُهاجِروا مِن دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ.

وعن بُريدةَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رسولُ الله – ﷺ – إذا أَمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سَرِيَّةٍ، أوصاه في خاصَّتِه بِتَقوى اللهِ، ومَن مَعَه من المسلمينَ خَيرًا، ثم قال: ((اغزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ،

---

(224) رواه البخاري (2446) واللفظ له، ومسلم (2585).

(225) رواه البخاري (6011)، ومسلم (2586)، واللفظ له.

قاتِلُوا مَن كَفَر باللهِ، اغْزُوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغدِرُوا، ولا تَمْثُلُوا،[226] ولا تَقتُلوا وَليدًا، وإذا لَقِيت عَدُوَّكَ مِن المُشـركين، فادْعُهم إلى ثلاثِ خِصـالٍ- أو خِلالٍ- فأيَّتُهنَّ ما أجابوكَ فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثم ادْعُهم إلى الإســلامِ، فإنْ أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، ثمَّ ادعُهم إلى التَّحَوُّلِ مِن دارِهم إلى دارِ المُهاجِرينَ، وأخبِرْهم أنَّهم إن فَعَلُوا ذلك فلَهم ما للمُهاجرينَ، وعليهم ما على المُهاجرينَ، فإن أبَوْا أن يتحَوَّلوا منها فأخبِرْهم أنَّهم يكونونَ كأعرابِ المُســلِمينَ؛ يَجري عليهم حُكمُ اللهِ الذي يجري على المُؤمنينَ، ولا يكونُ لهم في الغَنيمةِ والفَيءِ شَــيءٌ، إلَّا أن يُجاهِدوا مع المُســلمينَ، فإنْ هُم أبَوْا فسَلْهُم الجِزيةَ، فإنْ هم أجابوك فاقبَلْ منهم، وكُفَّ عنهم، فإن هُم أبَوْا فاستَعِنْ باللهِ وقاتِلْهم)).[227]

وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ.

أي: وإن طلَبَ منكم هؤلاءِ- الذينَ آمَنوا ولم يُهاجِروا- أن تَنصُــروهم على الكُفَّارِ في قتالٍ دينيٍّ؛ لأنَّكم إخوانُهم في الدِّينِ- فعليكم نَصرُهم، ولا تخذُلوهم.

إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ.

أي: إلَّا إذا طلَبَوا منكم أن تَنصُــروهم على قومٍ مِن الكُفَّارِ بينكم وبينهم عهدٌ مؤكَّدٌ على ترَكِ الحَربِ، فلا تَغدِروا بالكُفَّارِ بِنَقضِ ذلك العَهدِ.

---

(226) مَثَلَ به يَمثُلُ: إذا نكَّلَ به، وقَطَعَ أطرافَه.
يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 290)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (6/2528).
(227) رواه مسلم (1731).

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على ما تَعملونَ- أيُّها المُؤمِنونَ- بصيرٌ به، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، فلا تُخالِفوا ما أمَرَكم به؛ لئلَّا يَحِلَّ بكم عِقابُه.

وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73).

وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ.

أي: والكُفَّارُ بَعضُهم أعوانُ بَعضٍ؛ يَرِثُ بَعضُهم بعضًا، ويتَناصَرونَ فيما بَينَهم على قتالِ المُسلمينَ.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [المائدة: 51].

وقال سُبحانه: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً [التوبة: 36].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ [الجاثية: 19].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَرِثُ المُسلِمُ الكافِرَ، ولا الكافِرُ المُسلِمَ)).(228)

(228) رواه البخاري (6764) واللفظ له، ومسلم (1614).

إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ.

أي: إن لم تَفعَلوا- أيُّها المؤمِنونَ- ما أمَرْتُكم به مِن تَوَلِّي بعضِكم بعضًا، وتَرْكِ مُوالاةِ الكافرينَ؛[229] تقَعْ في الأرضِ فتنةٌ عظيمةٌ بينَ النَّاسِ، وفَسادٌ عريضٌ في الدِّينِ والدُّنيا.

كما قال تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ [آل عمران: 28].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(229) قال ابنُ جُزي: (إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ (إلَّا) هنا مركَّبةٌ مِن (إنِ الشَّرطية) و (لا النَّافية)، والضَّميرُ في تَفْعَلُوهُ لِولايةِ المُؤمنينَ ومُعاوَنَتِهم، أو لِحِفظِ المِيثاقِ الذي في قولِه: إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ، أو النَّصرِ الذي في قولِه: فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ).

((تفسير ابن جزي)) (1/330).

ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (5/359).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ الذي لا شكَّ فيه- إن شاء اللهُ- أنَّ الضَّميرَ (الهاء) في قوله تعالى: إِلَّا تَفْعَلُوهُ عائدٌ إلى ما ذكَرَه اللهُ جلَّ وعلا مِن وَلايةِ المُسلمينَ بَعضِهم بعضًا، ومُقاطَعتِهم للكُفَّارِ، ووَلايةِ الكُفَّارِ بعضِهم بعضًا).

((العذب النمير)) (5/214).

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [المائدة: 54 – 57] .

وقال تبارك وتعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ [الممتحنة: 4].

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74).

وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.

أي: والمؤمنونَ المُهاجِرونَ الذين قاتَلوا الكُفَّارَ؛ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، والأنصارُ الذين ضمُّوا مَن هاجَرَ إليهم، ونَصَرُوهم، ونَصَروا دينَ اللهِ– أولئك هم الكامِلونَ في الإيمانِ، الذين حقَّقوا إيمانَهم بفعلِ ما يقتضيه مِن الهِجرةِ، والنُّصرةِ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ.

كما قال تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحجرات: 15].

لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

أي: للمُهاجِرينَ والأنصارِ مَغفرةٌ تامَّةٌ مِن اللهِ تعالى، فيستُرُ ذُنوبَهم، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذَتِهم بها، ولهم رزقٌ حسنٌ كثيرٌ، هَنيءٌ طَيِّبٌ.

وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75).

وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ.

أي: والَّذِينَ آمنوا مِن بَعدِ بَيانِ أمرِ تَوَلِّي المُهاجرين والأنصارِ بعضِهم بعضًا، وانقِطاعِ وَلايَتِهم مِمَّن آمَن ولم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِرَ، وهاجَروا مِن دار الكُفر إلى دارِ الإسلامِ، وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ معكم- أيُّها المهاجرونَ والأنصارُ- فأولئك منكم في الوَلايةِ؛ فلهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، مِن حَقِّ النُّصرةِ وغَيرِها، وهم معكم في الآخرةِ.

كما قال تعالى: وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 100].

وقال سبحانه: لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ [الحديد: 10].

وقال جلَّ جلالُه: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [الحشر: 10].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((المَرءُ مع مَن أحَبَّ)).[230]

وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ.

أي: وذَوُو القَراباتِ أَوْلى بالتَّوارُثِ بينهم[231] في حُكمِ اللَّه وشَرْعِه.[232]

---

(230) رواه البخاري (6168)، ومسلم (2640).

(231) قال أبو حيان: (من قال: إنَّ قولَه في المؤمنينَ المهاجرينَ والأنصارِ: بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ في المواريثِ بالأخوَّةِ التي كانت بينهم، قال: هذه في المواريثِ، وهي نَسْخٌ للميراثِ بتلك الأُخُوَّةِ، وإيجابُ أن يَرِثَ الإنسانُ قَريبَه المؤمنَ وإن لم يكُن مهاجرًا، واستدلَّ بها أصحابُ أبي حنيفةَ على توريثِ ذوي الأرحامِ، وقالت فِرقةٌ- منهم مالكٌ-: ليست في المواريثِ، وهذا فِرارٌ عن توريثِ الخالِ والعَمَّةِ ونحو ذلك، وقالت فِرقةٌ: هي في المواريثِ إلَّا أنَّها نَسَخَتْها آيةُ المواريثِ المبيِّنةُ).

((تفسير أبي حيان)) (360/5).

وقال الرازي: (الذين فَسَّروا تلك الآيةَ بالنُّصرةِ والمحَبَّةِ والتعظيمِ، قالوا: إنَّ تلك الوَلايةَ لَمَّا كانت مُحتمِلةً للوَلايةِ بسببِ الميراثِ، بيَّن الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّ وَلايةَ الإرْثِ إنَّما تحصُلُ بسببِ القَرابةِ، إلَّا ما خصَّه الدَّليلُ، فيكون المقصودُ مِن هذا الكلامِ إزالةَ هذا الوَهمِ، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ تكثيرَ النَّسْخِ من غيرِ ضَرورةٍ ولا حاجةٍ، لا يجوزُ).

((تفسير الرازي)) (520/15).

(232) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (99/4، 100)، ((تفسير السعدي)) (ص: 328)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (232/5 - 236).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ بكتاب الله هنا: حُكمُه وشَرْعُه: ابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشِّنقيطي، ونسبه لجُمهورِ العُلَماء.

يُنظر: المصادر السابقة.

واختار ابنُ جرير أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (301/11).

واختار أبو حيَّان أنَّ المرادَ به: القُرآنُ الكريمُ.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (360/5).

إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ اللَّهَ عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومن ذلك عِلمُه بما يَصلُحُ لِعِبادِه؛ فكُلُّ ما شَرَعَه لهم فهو مُوافِقٌ للحِكمةِ، كتَوريثِه بعضِهم مِن بَعضٍ بِسَبَبِ القَرابةِ والنَّسَبِ.

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السابعُ

ويليه المجلدُ الثامنُ، وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ التوبةِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا